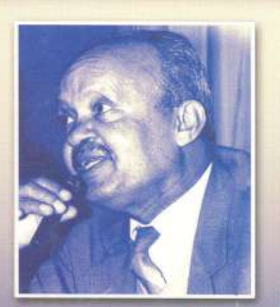
كتاب الهلال



ذكريات من حياتي

د. عبد العظيم أنيس



سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٦١٨ - ربيع أول - يونيه ٢٠٠٢

No - 618 - Ju - 2002

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٢٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٦ دينار - الكويت ٥ ١ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبو ظبي ١٥ درهم - سلطنة عمان ١.٥ ريال - المغرب ٢٥ درهما - فلسطين ٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات

عنوانه بالبريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

ذكريات من حياتي

د . عبدالعظيم أنيس



دار الهلال



الغلاف للفنان

محمد ابو طالب



الاهداء

إلى ذكرى شقيقتى سعاد أنيس السيدة الجليلة التى وقفت إلى جانبى دائماً فى ظروف حياتى الصعبة.



تقديم

ترددت طويلا عندما طرحت فكرة إصدار هذا الكتاب ، وأخذت أقلب الأمر ..

هل حياتى تستحق أن يصدر عنها كتاب . وأخيرا وافقت ، بعد أن اتفقت على عنوانه «ذكريات من حياتى» .

فأنا لا أصدر كتابا شاملاً عن حياتى وانجازاتى بالمعنى الذى يقصده الاوربيون ، تحت اسم "autobiojraphy" لأنى أولا لم أتعرض لكل ظروف ومسيرة حياتى من ناحية ، وثانيا لأننى مقتنع أن حياتى هذه وأحداثها لا تستحق كتابا من النوع الذى يصدره الغربيون ، فمن أنا حتى أطمع فى كتاب من هذا النوع .

والحقيقة أن بعض مادة هذا الكتاب قد سبق نشرها على هيئة مقالات فى مجلة الهلال ، أو الاهالى أو العربى «المصرية والكويتية» أو وردت فى كتب صدرت لى فى مناسبات مختلفة ، واقتنعت عن صدق أنها قد تكون مفيدة ، للقارىء لاستخلاص دروس منها .

وقد مررت فى حياتى بظروف صعبة كثيرة واشتغلت فى أعمال متباعدة ، سنوات مختلفة من حياتى ، فأنا فى الأصل استاذ رياضيات، قمت بتعليمها فى جامعات مصر الثلاث الرئيسية .. جامعة القاهرة - جامعة عين شمس - جامعة الاسكندرية .

كما قمت بتدريسها ، فى إحدى كليات جامعة لندن سنوات «١٩٥٥ - ١٩٥٦» .. ولى أبحاث علمية عديدة ، منشورة فى المجلات العلمية الدولية ومع ذلك، فقد شاءت الظروف أن اشتغل صحفيا سنوات من حياتى . وأن اتخصص فى الشئون العربية ، ولقد قضيت سبع سنوات من حياتى معتقلا ، بسبب أفكارى السياسية اليسارية ، خمس سنوات وثلاثة شهور فى معتقلات عبد الناصر .. وسنتين الا ثلاثة شهور فى معتقلات الملك فاروق ، وقد قضيت أيام الملك فاروق فى معتقلات أبو قير ، ثم الهاكستيب ثم الطور على البحر الأحمر .

أما معتقلات عبد الناصر فقد كانت فى الاساس فى اوردى ابو زعبل ، ثم معتقل الواحات وعلى الرغم من أننى قدمت إلى محكمة الجنايات أيام الملكية ، فأصدر قاضى الاحالة انذاك أنه لا وجه لاقامة الدعوة ضدى

إلا أنني ظللت معتقلا حتى جاءت الحكومة الوفدية عام ١٩٥٠ وأفرجت عن كل المعتقلين ..

وفى أيام حكم عبد الناصر قدمت مع آخرين لمجلس عسكرى برئاسة رئيس سلاح المدفعية آنذاك اللواء هلال عبد الله هلال ، وكنت أنا والصديق محمود أمين العالم الوحيدين اللذين حكم لهما بالبراءة ، وعلى ذلك بقيت فى الواحات حتى أفرج عن جميع المثقفين والمحكوم عليهم بالسجن .

واليوم وأنا اقترب من الثمانين ، لست نادما على أى شىء .. فقد كان همى طوال حياتى الدفاع عن الفقراء والمظلومين وعن استقلال مصر ، وحقها فى حياة كريمة وعندما أتأمل هذا الشريط الطويل من حياتى من طفولتى فى حى الأزهر ، إلى اليوم .

أجدنى راضيا عما قمت به ، وضحيت من أجله مهما كانت قسوة الأيام .

وأرجو أن يجد القارىء على صفحات هذا الكتاب
ما يقنعه بأنه جدير بالقراءة
وأن به بعض الدروس المفيدة

د. عبد العظيم أنيس

الباب الاول

التكوين

ولدت في شهر يوليو عام ١٩٢٢ في حي الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء، أربعة ذكور وأربع إناث، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر، وكان هذا بيت جدي لأبي في حقيقة الأمر الذي كان يعمل في صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبي وشقيقاه يساعدونه في بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتي لأبي ساعدت جدي في بناء البيت الذي كنا نسكن فيه بالأزهر.

كانت عائلة أبي جميعا من الصرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس في جواره البركة، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو احترف صناعة البناء كما فعل جدي. ولقد تعلم أبي وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج، وارتبطت أعمال أبي بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد في

المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر، بينما تخصص أعمامي في عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالي تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار.

وكانت عائلة أمي ذات صلة أيضا بصناعة البناء، ومن هنا تم زواج أبي بأمي. فقد كان جدي لأمي مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره، وكان بارعا في صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس» وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده، ولقد كسب جدي لأمي كثيرا وأضاع معظم ما كسبه في أهواء الشرب والنساء. على عكس جدي لأبي الذي كان شديد الحرص على ماله، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف في منزله. وقد تزوج سيدة تركية الأصل هي جدتي لأمي لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشي في السنوات الأخيرة من حياتها فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام.

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبي لم يمتهن أحد من أخوالي صناعة أبيهم، فقد كان الوضع التقليدي في أسرة أمي هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعي. وكان التعليم آنذاك في الأسرة يعني الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس في مدارس الحكومة. هكذا فعل خالي زكي المهندس ومن بعده شقيقه كامل، وهكذا فعل من بعدهما شقيقي الأكبر إبراهيم. وكان أخوالي من الهمة في التحصيل والتفوق في الدراسة بحيث أرسل خالي زكي إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل في تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ ويبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية. وكان لهما شقيق أكبر – من الأم فقط – عرف في الأسرة باسم الشيخ علي الشهداوي درس أيضا في

الأزهر وارتبط بالحزب الوطني حتى أنه أرسل في بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبدالعزيز جاويش.

ازدواجية الإسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمي بطيء من التفصيل لسببين... أولهما أنني عندما ولدت عام ١٩٢٣ أرادت أمي أن تسميني باسم «كامل» تيمنا بأخيها كامل الذي كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت. لكن جدتي لأبي – وكانت صاحبة شخصية قوية – اعترضت حتى لا يظن أحد أنني قبطي فاقترح والدي أن يكون اسمي في شهادة الميلاد «عبد العظيم» منعا لأي لبس بينما ينادونني في البيت باسم شقيقها وهكذا نشأت أحمل اسمين: واحدا في شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد في العائلة وأخر في المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة في حياتي ولم يختف هذا الازدواج في اسمي من حياتي إلا عندما تخرجت من

الجامعة وتزوجت فأصبح لي اسم واحد هو عبدالعظيم.

أما السبب الثاني للاستطراد عن أسرة أمي فهو أن جو التعليم الذي اندمجت فيه أسرة أمي أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة، فقد كان خالي الشيخ علي الشهداوي من أنصار الحزب الوطني بينما كان خالي الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول. وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة، وفي هذا الجو انحاز شقيقي الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد، وكان وهو طالب في دار العلوم كثير التردد علي بيت الأمة، يلقي القصائد الوطنية أمام سعد زغلول ومن بعده مصطفي النحاس ولهذا كان انحيازنا الأول – وأنا وأشقائي – إلى الوفد بطبيعة الحال.

ولقد بقيت في حي الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكُتّاب بعض الوقت وأنا في الرابعة من العمر. لكنى لا أتذكر من هذا إلا أن الكُتّاب كان بجوار منزلنا، وكانت هناك حنفية للمياه أمام الكُتّاب يتزاحم حولها الناس لملء صفائحهم

وأوانيهم وكانت جدتي لأبي تأتي لزيارتي في الفصل وتعطيني نكلة (مليمين) أشتري بها من المدرس بعض الكعك. غير أن جدي بنى منزلا في العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلي (شارع رمسيس اليوم). وكان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن في الدور الثاني وسكن عمي الأكبر في الدور الأول بينما سكن عمي الأصغر في البدروم. لقد تركنا حي الأزهر عام ١٩٢٨ فيما أظن وكانت أمي تقول آنذاك إننا «طلعنا» العباسية بعد موت سعد زغلول وكنت أدهش من استخدامها فعل «طلع» في هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى في أرضها من أرض حي الأزهر، أم أن «الطلوع» هنا بمعنى الصعـــود في السلم الاجتماعي. ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة في حي الأزهر على مشروع الانتقال إلى حي العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل في هذا الحي الجديد نسبيا. كانت معظم أراضي العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها في أوائل القرن وفي العشرينات وإليها انتقلت

عشرات الأسر. وكانت القاعدة العامة هي أن الأسر الثرية تبني لها فيلات في العباسية الشرقية. أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبني في العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك. ويذكرني هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذي انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكري بالعباسية الغربية. وفي الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكري كثيرا.

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد في العباسية تحولا كبيرا في حياتنا. فقد وجدنا أنفسنا نمشي ونلعب في شوارع واسعة ونظيفة، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التي كانت تجمع أطفال الحي وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضراوات، وكثيرا ما كانت ترسلني أمي إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب. وكانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة، وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوي يجري في صحراء العباسية وأصبح الموكب

المحمل بالكسوة الشريفة ينتهي هناك ومع أن صلتنا لم تنته بحي الأزهر لأن جدتي وجدي لأبي ظلا هناك، فإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجيا خصوصا بعدما ماتت جدتي فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدي للإقامة معنا في العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة.

ألم فراق جدتي وأمي

ولقد كان حادث وفاة جدتي صدمة لي وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا في هذه السن الصغيرة، فقد كنا نحبها حبا جما، وبدا لي اختفاؤها المفاجيء أمرا شديد الصعوبة. وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينتهيان، عندما نعرف أنها ستأتي لزيارتنا، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتي وأولاد عمي في زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت، ولا عجب في ذلك فقد كانت تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل – حدث وفاتها – فقد دق بعض أقاربنا باب

منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبي وأمي بسرعة وهما يهمسان. فلما طلع الصباح أخذنا أخي حسن - نحن الاخوة الثلاثة الصغار - معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدى سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخي حسن وقال لنا الخبر الحزين. ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر في حياتي إزاء الموت عندما ماتت أمي عام ١٩٤٠ نتيجة الاصابة بالحمي، وكنت قد انهيت إمتحان السنة التوجيهية وكان عمري آنذاك سبعة عشر عاما. وكنت شديد التعلق بأمي وأدت بي هذه الصدمة إلى تحولي إلى إنسان نباتي لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلا قرب تخرجي من الجامعة.

عندما انتقلنا إلى حي العباسية كان من الطبيعي أن يدخلني أهلي مدرسة تناسب سني، ولقد دخلت مدرسة البراموني الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الابتدائية، وكانت هذه المرحلة - مرحلة

المدرسة الأولية – تعيسة بالنسبة لي، ولشرح ذلك ينبغي أن أوضح أنني قد تعرضت وأنا في الثالثة لحادثة – ونحن مازلنا في حي الأزهر – كادت تؤدي بحياتي، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح في الأسنان واللثة، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة في اللثة العليا، وذهب بي أهلي إلى المستشفى الايطالي بالعباسية وأجريت لي جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت. فلما عوفيت اتضح لأهلي أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه في الفم، وفي المدرسة الأولية كان الاطفال وبعض المدرسين يعيرونني بهذا التشويه، وكان مدرس اللغة العربية يناديني للاجابة فيقول مقوم يا أشرم، إشارة إلى هذا العيب، وأعتقد أن الخجل والانطواء في شخصيتي آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف، ولقد أدى هذا إلى كراهيتي للمدرسة والذهاب إليها وإلى شدة تعلقي بأمي وكان ذهابي إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكي وأصرخ إلى أن

يحملني الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفني الشيخ ناجي المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لي حذائي ثم يقوم هو بضربي على قدميّ بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين، وفي بعض الاحيان كنت أهرب من المدرسة في فترة بعد الظهر.

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أنني لم أتعلم الكثير في المدرسة الأولية، وعندما تقدمت عام ١٩٢١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح في الامتحان بل رسبت بجدارة، وعندئذ أسرع أخي إبراهيم بتقديم أوراقي إلى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد في امتحان القبول وهكذا قضيت مرحلة التعليم الابتدائي في الحسينية الابتدائية (وهي قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٥. كان التعليم الابتدائي بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاث أقساط) إلا المتفوقين أو نسبة ضئيلة جدا يتم

إعفاؤهــا بناء على تقديم شــهـــادة فـقـر. ولم أكن من المتفوقين، ومع أن الازمــة الاقتـصـادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ قد أصابت أبي بضرر شديد وصل إلى حد الافلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر. ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لي المصروفات في السنة الأولى وجزء من السنة الثانية، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الاوائل من كل سنة من سنوات الدراسة.

ومع بـدايتي المتواضـعـة كان اهتمـام أشـقـائي بي في المذاكرة قد أوصلني إلى أن أكون من الخمسة الأوائل في نهاية السنة الثانية وظل هذا حالي في السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص في اللغة العربية والحساب. وربما يعود تفوقي في اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الأسرة التي تخرج العديد من أبنائها من دار العلوم. أما شـغـفي بالحسـاب فـلا شك أن لمدرسي آنذاك - الأستاذ المرصفي - فضلا لا ينسى فيه.

وبشكل ما استطاعت الاسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة. ذلك أن أخي إبراهيم قد عين في مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات. ومع أنه كان الثاني في دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ إلا أنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقي باشا وقف التعيينات، وكانت شقيقتي الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لي وللثلاثة من الاشقاء. لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة. ولعل تلك المرحلة هي التي لفتت نظري – ولاتزال – لمسألة الفقر في الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم، والخسارة التي تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية.

الإبن القدوة

وينبغي أن أذكر هنا أن سلوك الإبن الأكبر في العائلة في طريق التعليم يكون له في العادة أثر غير قليل على الابناء الأصغر، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن

كبيرا. وفي حالتنا كان لتفوق شقيقي الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندي طوال مراحل التعليم. فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل في بعثة إلي بريطانيا عام ١٩٣٤ وطول المدة التي قضاها بالخارج كان يرسل لي كل فترة خطابات على المدرسة يشجعني. فيها على التفوق الدراسي ويطلب مني أن أبعث له بأخباري ومشاكلي. أتذكر مثلا أنني عندما كنت في سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلي ونادى اسمي، فلما وقفت ناولني خطابا من انجلترا. وبالطبع كانت سعادتي وفخري أمام زملائي فوق الوصف، وقد حدث نفس الشيء لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية.

في المرحلة الثانوية (١٩٣٥ – ١٩٤٠) قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاثة الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت

على الشهادة التوجيهية عام ١٩٤٠ . ولكن يحسن أن أشير إلى حادث مهم في حياتي وقع لي بمدرسة فؤاد الأول في السنة الأولى من التحاقي بها . ففي العام الدراسي ١٩٣٦/٣٥ قامت في مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا «صمويل هور» بمناسبة تصريح له. ولقد خرجنا من المدرسة في مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة، فعدنا إلى المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشاب. وكان شقيقي محمد في طليعة فرقة قذف الطوب، وكنت أساعده، وفي المساء جاءت قوات من البوليس إلى المنزل وسألت عني لأنهم وجدوا بعض كتبي على سطح المدرسة، كنت في الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلي حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين في زنزانة القسم، وفي الصباح أخذونا إلى مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التي تولت التحقيق معنا، ثم أفرجت عني لصغر سني. كان هذا الحادث أول مواجهة لي – وأنا مازلت طفلا – لسلطة السلطة، ولقد بكيت

عندما جاءت أمي لزيارتي في قسم البوليس لكني عندما عدت إلى المدرسة في اليوم التالي حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائي. وبالطبع ترك هذا الحادث أثراً عميقاً في حياتي بعد ذلك، مازلت أذكره بتفاصيله كما أنني مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التي مرت عام ١٩٣١ في شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد في تلك الجنازة الظاهرة كقولهم «إشكي الظلم لسعد ياويصا».

تكويني الثقافي

وفي هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واظبت طوال الصيف على الذهاب إلى دار الكتب في ميدان باب الخلق للقراءة واستعارة الكتب، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخي إبراهيم بالمنزل التي تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريري وديوان المتنبي وديوان الحماسة لأبي تمام وكتاب قدامة بن جعفر في نقد النثر وغيرها، ولست أدعي أنني فهمت كل ما قرأت في مكتبة أخي،

لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتي على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً. وساعدني على هذا أن خالي الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامي رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية في القاعة المقابلة، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بي ويساعدونني، وفي تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازني وتوفيق الحكيم وعبدالله عنان كما قرأت ديوان شوقي ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودي، وكان العقاد يلفت نظري ويستحوذ على إعجابي بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» ومطالعات في الكتب والحياة وتأملاته في الفلسفة وكتابه عن ابن الرومي. لكن كتب العقاد التي صدرت في مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم.

وفي تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التي تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلني

على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون في الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة في الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين. وكان لكل هذه القراءات أثرها في نشاطاتي بمدرسة فاروق الأول الثانوية. فمع مواظبتي على شراء مجلة «الثقافة» كنت مشتركا في جمعية التمثيل بالمدرسة وأذكر أني قمت بدور الكاهن «أنوبس» في مسرحية كليوباترا لشوقي عندما قدمناها في آخر العام. وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة «الفجر» واشتركت مع آخرين في تكوين «الجمعية الرياضية» تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة. وقد شجعني هذا النشاط على مواصلته في مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعية الطلابية للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٤٤/٤٣.

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولي على شهادة الثقافة العامة، إذ كان عليَّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب، علوم، رياضيات). فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا

للرياضيات ومتفوقا فيها، ومع أنه بدا لي أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعي لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته «لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة» إلا أن نظام التعليم في جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة في الجامعات الأوربية والامريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الاساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما في جامعاتنا. وفي ظني أن إحدى نقاط الضعف الاساسية في جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذي لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد.. وهكذا.

وظللت في هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخي إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعي بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال أنذاك إن في مقدوري

دراسة الفلسفة أو الأدب وحدي بالقراءة والمثابرة في أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا، وأذكر أنه قال لي كآخر حجة في جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحداً !

واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات في السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات في كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا. وفي مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية - البحتة لا التطبيقية - ذات جمال خاص. وما كان يذهلني حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية في الهندسة والجبر التي بدت وكأنها مستقلة عن أي خبرة . إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون . واحتضنت بقوة كتاب الرياضي الانجليزي الكبير هاردي «الرياضة البحتة» كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك.

في مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة في الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت في أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم

جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) ومع أنه كانت هناك فرصة لتعييني بجامعة القاهرة إذا انتظرت فإنني أثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة في مقدمتها أنني كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتي وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

لكني ذهبت الى الاسكندرية وأنا أحمل في داخلي ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما في تحديد مسار حياتي واهتماماتي بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتي وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامي منذ وقت مبكر في شبابي بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الأخرين خصوصا إذا كانوا من الفئات المضطهدة والمظلومة والمطحونة اجتماعيا فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد اثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز - وسط غارات جوية المانية وايطالية على القاهرة والاسكندرية . وكانت قوات روميل قد وصلت الى العلمين، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية

بالزيتون التي كانت قد انشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سني أنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما. وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة في المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الاميرة فادية بالمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجاني في المبرة الأولى التي كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة في فصول محو الأمية وفي الطواف على منازل الاطفال الفقراء بالمحمدي لبحث الحالة الاجتماعية لاسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها. وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار الممولين فيها.. كامل عبد الرحيم وكيل الخارجية المساعد أنذاك وسفير مصر في واشنطن بعد ذلك والمستشار عبدالمنعم رياض الذي كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت اقناع بعض زملائي ومنهم د. محمد عجلان - بالاشتراك في هذا العمل التطوعي الخيري خلال فترة الصيف، ونجحت في ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة، خصوصا كامل عبد الرحيم الذي كان يرى في هذا العمل نقطة تحول في توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية، وساعد على توثق صلتي به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفي وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الاموال المخصصة للانفاق عليها، فما كان منه إلا أن كلفني بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر. وعندما تخرجت من كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاي بمنزله بمصر الجديدة لتحيتي وتوديعي وأهداني باسم المبرة أربعة كتب في الرياضيات قيل لي إنها سوف تفيدني في حياتي العلمية الجديدة.

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتي بالعمل العام -

الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت الى الاسكندرية ولقد
اشرت الى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى
حملتها معى عند ذهابى الى الاسكندرية . وهنا يجب أن
أشير إلى علاقتى بالدكتور عبدالمعبود الجبيلى - وزير البحث
العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك
- كان عبد المعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين
وكان محل انتباه الانظار بالكلية له التفوقه العلمى وذكائه
واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى
الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس
الذى توقعته ، وأدى بنا هذا الى حوار طويل حاول فيه اقناعى
بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى
الأحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون
مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين ، وأن الحل الحقيقى
الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم، وان مثل هذا
العمل فى حاجة الى إعداد طويل .

وشيئا فشيئا بدأت أشك فى انه مرتبط بشكل ما

بتنظيمات ماركسية غير معلنة ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معي ببعض الصراحة ويعيرني بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل «ما هي الاشتراكية» لإميل بيرنز وكتاب «الامبريالية» أعلى مراحل الرأسمالية» للينين، وملخص لكتاب «رأس المال» لماركس، وكتب أخرى ترضي اهتماماتي بالفلسفة مثل كتاب «الايديولوجيا الالمانية» «ضد دهرونج» لماركس وكتاب «المادية والنقد التجريبي للينين» ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت انني فهمت وإن كنت قد ادركت في فترات لاحقة أن الفهم الحقيقي لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعي والثقافي اللذين ألفت فيهما هذه الكتب. غير أن أهم كتاب اثار اهتمامي انذاك هو في الحقيقة كتاب انجلز «جدل الطبيعة» وهو محاولة من المؤلف – على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر – لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات. وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهاري الشديد تلك الفترة من شبابي لأنه بدا لي أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية – في

الرياضيات والفيزياء والبيولوجي - لم اسمع به من قبل، ولقد لفت نظري على وجه الخصوص كيف أن رجلا مثل انجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص في العلوم .

وبالطبع فعندما أنظر الآن الى هذا الكتاب أشعر أن هذا الاعجاب المبكر كان مصدره جهلي بأشياء كثيرة عن العلم، وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخي ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التي تبدو لي اليوم ساذجة كان مصدرها معرفة انجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هي الحل

تلك كانت البداية إذن ... مناقشات مستمرة مع عبد المعبود الجبيلي وغيره من الاصدقاء، وقراءة متصلة في كتب ماركسية كان يعيرني إياها، وكل هذا انتهى بي الى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة، وأن خير ما يفعله شاب مثلي هو المشاركة في

الاعداد لها، وهكذا ارتبطت بمنظمة «اسكرا» التي كان الجبيلي أحد قياداتها وعندما تمت الوحدة بين «اسكرا» وبين «الحركة المصرية للتحرر الوطني» عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني «حدتو» اصبحت واحدا من اعضائها.

ولقد كانت مصر – في ظل الازمة الطاحنة التي كان يجتازها النظام الملكي الحاكم – تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم الضباط الاحرار الذي كان يقوده البكباشي جمال عبدالناصر ومع أنني لم أكن على علم بتنظيم الضباط الاحرار فقد كنت اشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجري داخل الجيش بين ضباطه الصغار، وكان مصدر هذا الشعور أنني قابلت انذاك عددا من الضباط الصغار ذوي الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش.

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة «اسكرا» لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية. لقد

كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الاسكندرية، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر. ولذا لا شك ان مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا رئيسيا في تشكيل مصري في أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد على ذلك اننا نجحنا في إنشاء ناد ثقافي بحي الازاريتا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة، وفي تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة «الجماهير» الاسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما في تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة ادراكنا أن هناك تنظيما «اسكرا» في أوساط الاجانب لا نعرف عنه شيئا . ولكن مما خفف هذا الوضع علينا في الاسكندرية اننا كنا نعمل بنجاح كبير في أوساط الطلاب والعمال وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصري والاجنبي يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل في السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ – ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيري واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطاني الرابض في القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكي الذي كان قد فقد شعبيته وبالتالي شرعيته تماما وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الاوبئة تكتسح البلاد – الكوليرا مثلا – وتفتك بالالوف، وكان الرأي العام – وخصوصا الشباب – معاديا للنظام الملكي ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التي كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلي أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك واسرته امام الرأي العام.

صراع مع الانجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع الى ذاكرتي أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتباري واحدا من شهودها او المشاركين فيها. وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي قادت مظاهرات ٢١ فبراير

سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال في ميدان التحرير وفي مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت محل مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى الي سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيري المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم مازال الطلاب في العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمي) .

ولانني كنت في الاسكندرية فلم يكن لي أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد، وإنما نكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التي كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربي البريطاني بمحطة الرمل والمنشية وأدت الي مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الاحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصري التي كانت تحاصر مبنى الجامعة في محرم

يك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فامطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب او هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم - محمد العشماوي - من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم - الدكتور حسين فوزى - وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال. واتصلت تليفونيا بأحد الاصدقاء خارج الجامعة وابلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها الى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن

الموقعين ، وكان ظهور اسمي بهذا الشكل مجرد مصادفة اذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن اعطاه صديقي اسمي. واستشاط رئيس الوزراء – اسماعيل صدقي – غضبا وكلف وزير التعليم بالتحقيق في الموضوع . واعتقد انني كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدي العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلي المسئولية.

محاولات فاشلة لاعتقالي !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمي في كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقي التي نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكي عبد القادر والدكتور محمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوي وهنري كورييل وآخرون كثيرون ، والتي قصد بها في حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيري البارز الذي كان اليسار

المصري - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح في قيادته.
ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالي لأنهم ذهبوا الى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا عني . ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفي اليوم التالي تقدم النائب باستجواب في البرلمان، وكانت العلاقة بين اسماعيل صدقي والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء الى أن يلقي بيانا في البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذي كان مكلفا باعتقالي ضمن الحملة، وقدم اسماعيل صدقي اعتذارا للنائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل الى الصعيد عقابا له.

قرأت كل هذا وأنا في مخبئي عند أحد الاصدقاء بالاسكندرية وقد تردد اسمي كثيرا في كل هذه المساجلات البرلمانية وفي أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا في حملة يوليو وحفظت التحقيق . فعدت الى

الجامعة وعند خروجي منها ظهرا في أحد الأيام وجدت ضابطا في انتظاري حيث قضيت في قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة، وفي الصباح توجهت الى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألني بضعة اسئلة شكلية وتولي هو الاجابة عليها ثم رجاني أن اذهب الى الجامعة فور خروجي من مكتبه . ولم أفهم السبب في هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولي الى الكلية باضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالي .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالاشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ .٦ ابريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم «اضراب البوليس» لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل، وقد فشلوا في اقناع رئيس الوزراء النقراشي الذي كان عنيدا الى حد الحماقة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا الى اضراب عام لهم في يوم ٥ ابريل ، وكان لهذه الدعوة الى الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة في الاسكندرية على وجه الخصوص ..فقد تزامن هذا

الموضوع الخطير – اضراب البوليس – مع مطالب نقابية خاصة بالاجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم. كما تزامن مع موضوع طلابي اخر عرف انذاك باسم «قضية سعد فريد».

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه في حي كرموز وقيل أنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الاهلية. وفي اجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر وقد أثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان اول حكم يصدر ضد طالب. كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الاقل. لكن غياب البوليس في هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس في مظاهرات ملأت ميدان المنشية وكان جنود البوليس يرفعون سناكي بنادقهم وعلى قمتها رغيف عيش اشارة الى مطالبهم. واتجهت بعض هذه المظاهرات الى سجن الحضرة لاطلاق سراح سعد فريد. ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة الى الميادين

وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى، وفي هذا اليـوم - او ربما اليـوم التـالى ٦ ابريل - وزعت منشـورات باسم (حدتو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير. ولقد أشرت منذ سنوات في مكان آخر الى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كـان في الحقيقـة الشاعر كمـال عبـد الحليم الذى كـان انذاك المسئول السياسى فى (حدتو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور في أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه . وكنت انذاك مسئول الدعاية والتثقيف في نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثورى بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقى لقيام حكومة النقراشى باعلان الاحكام العرفية فى ١٥ مـايو سنة ١٩٤٨ رغم أنها أخـذت من مـوضـوع فلسطين تكئة لهذا الاعلان ، ولعل الدليل الواضح علي ذلك انها لجأت الي اعتقال كل القوى السياسية المناوئة للنظام بادئة باليسار

ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور. وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين اودعوا في معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين الى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ثم نقلت مع اخرين الى معتقل (الطور) على ساحل البحر الاحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع في هذا المكان الذي كان أصلا مخصصا للحجر الصحي الالاف من اليسار والاخوان المسلمين .

وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجي، وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هي الباخرة «عايدة» التي كانت تأتي لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت في تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت في أخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عني في ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما

أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضروري الاشارة الى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع الانقسامات العديدة التي وقعت في صفوف اليسار وأدت الى تضعضع نفوذه . صحيح ان الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل اعلان الاحكام العرفية والاعتقالات، وذلك بانقسام شهدي عطية الشافعي الذي عرف انذاك بـ «تكتل سليمان»، ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ .. كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات اوسع بين مؤيدي مشروع التقسيم ومعارضيه في صفوف اليسار، وكان من الطبيعي أن يثور في هذا المناخ وضع الاجانب واليهود داخل قيادة (حدتو) وخصوصا هنري كورييل .

ولقد حاولنا في الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا في ذلك الى حد كبير في أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا الى معتقل الهاكستيب حيث

الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال الى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الأجانب فى مصر ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وإن كان بعض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا انشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولا شك أن الانقسامات قد اضعفت نفوذ اليسار الى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين انه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فى يوم من الايام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما افرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت الى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الاخرون من المعيدين ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد. وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية – الدكتور طه حسين – لشرح الاوضاع له ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه ((سعيد العريان) .ولقد كان موقف الوزير رائعا على

الرغم من أنه لم يكن يعرفني اصلا .. أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم اشار الى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا. وبقيت في غرفة حسين عزت الى ان استدعاني الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب مني أن أذهب إلى الاسكندرية لتسلم عملي ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت الى الاسكندرية انه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا الى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتي الى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة انتهيت فيها - بعد مراجعة فكرية طويلة - إلى ضرورة اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسي نتيجة ما استجد من ظروف .لقد تمزقت قوى اليسار الى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقي، واتضح لي سذاجة تفكيرنا السياسي الذي كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هي على الأبواب. ولقد كنا محقين في الوصول الى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التي على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان في

تصور ان اليسار كان قادرا على التصدي لقيادة التحول.
ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطني العام (وإن ضموا عناصر تنتمي الى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول في معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود في القيادة (خالد محيي الدين) .

وكل هذا التحليل قد انتهى بي إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه ما بمت سابقي في الجامعة. وطلبت من صديق لي كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه ان يحجز لي مكانا في إحدى كليات جامعة لندن، وعندما تم هذا بدأت استعد علميا للسفر ، إذ مشاكل العمل السياسي كانت قد أبعدتني عن اهتماماتي العلمية، وهكذا سافرت في أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ الى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التي وقعت لي قبل سفري بأقل من شهرين أن وزير الداخلية في وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعاني الى مقابلة في مكتبه بلاظوغلي في يوليو سنة

١٩٥٠ كما استدعى زميلي د. محمد عجلان . وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسي تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الاصلاح الزراعي وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية.. الخ .

وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود في برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على هذا الرأى . وقد فهمت السبب الاساسي لدعوته عندما قال ان تقارير القسم المخصوص تقول إننا مستمرون في نشاطنا السياسي غير القانوني . ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت استعد للسفر إلى لندن ومشغولا باعادة تأهيل نفسي من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجىء بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن . ولقد ذكرته في الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يهتم هو به عام ١٩٤٩. من نفس هذه الاجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء انذاك النقراشي – ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند

سماعه كلامي. ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذي حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومي على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذي صار رئيسا للوزراء بعد ذلك في عهد السادات .

قضيت في بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لاعداد رسالة الدكتوراه في الاحصاء الرياضي بإحدى كليات جامعة لندن. ومع أنى قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى في بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتي ١٩٥٥ - ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لاحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينات) إلا أن فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية في حياتي العلمية وتكويني الثقافي..

وفي العادة يستغرق الاعداد للدكتوراه في الفروع العملية للعلوم الطبيعية حوالي اربع سنوات أو أكثر ، لكن في الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو انه نادر - ان ينتهي الطالب من اعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إن

ساعده الحظ في موضـوع البحث وارهق نفسـه بالعمل المتـواصل . وهو مـا حـدث مـعي اذ رغم سـوء حظي في مناسبات عديدة من حياتي فإن الموضوع الذي اقترح عليَّ بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل الى استاذي من خلال استاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التي التحقت بها الكلية «الامبراطورية» . والموضوع يتلخص في أن مهندسا استشاريا بريطانيا مرموقا - هيرست - عمل في مصر ستين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر في مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثا مهما يحاول فيه بناء نظرية للتخزين القرني (مائة سنة) للمياه في بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة في علم الاحتمالات والاحصاء وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطي اجابات تقريبية على مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان اذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى اساس تصرف مائي متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب مني هو معالجة

منهجية لهذه القضايا واعطاء اجابات دقيقة غير تقريبية عليها، وهذا ما نجحت فيه فى نهاية الامر وأدى بى الى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا فى حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس. وبعد الظهر فى الذهاب الى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمى البريطانى . وفى المساء فى مواصلة القراءة بالمنزل فى كثير من الاحيان . ولا شك أنها كانت مرحلة اساسية فى تكوينى العلمى.

تكوينى الثقافى

غير أن هذه المرحلة لم تكن اساسية فى تكوينى الرياضى فحسب وانما كانت ايضا شديدة الاهمية فى تكوينى الثقافى العام اذ انفتحت فيها على الجوانب الايجابية العظيمة فى الثقافة الغربية عموما وفى الثقافة الانجليزية خصوصا. ومن حسن الحظ ان الكلية التى التحقت بها كانت فى أحد احياء لندن المشهورة «سوث كينز نجتون» وهو حى المتاحف

الكبيرة... متحف فيكتوريا وألبرت، المتحف العلمي البريطاني... متحف التاريخ الطبيعي .. الخ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتي كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعات الجماهيرية الضخمة ، وكل هذا كان يبعد عن غرفتي بالكلية خطوات. ولا شك أنني مدين لقاعة ألبرت بتذوقي للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين الى قلبي ، كما حرصت في عطلات نهاية الاسبوع على التردد على المسرح البريطاني والاستمتاع برواشعه. ولم أفلح مع ذلك في تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتي في بريطانيا فرصة للقراءة في الادب الانجليزي وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامي بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلي ووركر البريطانية باسم (ص . الايوبي)، كما حرصت على التردد على النادي المصري

يومى السبت والاحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الاوضاع فى مصر، وقد استطعنا تشكيل اللجنة الوطنية لمتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د. حكمت ابو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ود. فائق فريد نائب وزير الكهرباء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم «السلام والاستقلال » وكنا نرسلها الى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد، والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د. عبدالمعبود الجبيلى فى باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها الى الانجليزية وطبع اعداد كافية منها وارسالها الى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا ، بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك

الفترة في مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات في لندن .. غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذي عقد بالنادي المصري إثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وكانت نفوس الطلاب تغلي سخطا على الاوضاع في مصر التي أدت الى تلك الكارثة الرهيبة، وفي هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التي دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط وزارة الوفد وحرق القاهرة، كما تحدث غيري من الطلاب في هجوم صريح على النظام الملكي في مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الاولى فيما حدث، بل لقد وقف احد الدارسين (د. عبدالحميد امين) وطالب بضرورة ان يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الازمة المستحكمة ..ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب في احراج شديد لمدير مكتب البعثات - د. عبدالعزيز عتيق - الذي كان

زوج شقيقة عبد الحميد امين وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد امين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وفى هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد. وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة. إلا ان الحدث الذى دفعنا الى تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا طلبا من مطالبنا فى مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢ وارسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد الثورة اذيعت من راديو القاهرة. وازدادت قناعتى بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت في الحصول على الدرجة وعدت الى مصر متفائلا ببداية

مرحلة جديدة . ولم أذهب الى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضا وإنما صدر قرار وزارى بنقلى الى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د. طلبة عويضة الذى كان قد اعير الى العراق وبقيت فى قسم الرياضة البحتة بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الاساتذة المساعدين واستاذا واحدا اتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة اسبوعيا حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فانحزت الى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب . وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش الى ثكناته . وكان إن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف. وكان من بين هؤلاء د. عبدالمنعم الشرقاوى . ود لويس عوض. ومحمود أمين العالم ود . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث واكتب مقالات

في الادب والثقافة في جريدة المصري ومجلة روز اليوسف .
وفي مايو سنة ١٩٥٤ طلبت اجازة في الصيف للسفر الي بريطانيا لاستكمال بعض الابحاث العلمية هناك، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله في لندن منقطعا لابحاثي وعدت الي القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلي من جامعة القاهرة، ومن المفارقات الغريبة ان استاذي في جامعة لندن الذي أشرف علي رسالة الدكتوراه استدعاني لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأني انه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر في الاحصاء باحدي كليات الجامعة وانه قد خطر في ذهنه أن يرشحني لشغل هذه الوظيفة. وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولي بجهودي . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا الي القاهرة لاجد قرار مجلس قيادة الثورة في القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت الي استاذي أخبره انني قبلت عرضه وأن خطابا في الطريق يشرح لماذا غيرت رأيي .

ولست أنسى فضل الذين حاولوا مساعدتي في هذه الظروف ومنهم د. عبد المنعم الشافعي الذي كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون . والذي رشحني للعمل في معهد الاحصاء الدولي (فرع بيروت) وبالفعل سافرت الى بيروت في نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور ادرس فيها لطلاب معهد الاحصاء الدولي. ومن بيروت سافرت الى بريطانيا في فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسي للعلوم والتكنولوجيا حتى تأميم قناة السويس في يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت أن أقدم استقالتي من عملي لانفرغ للدفاع عن قرار التأمين أمام الرأى العام البريطاني . والغريب أن إحسان عبد القدوس – وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتي فينشرها في روز اليوسف – كان قد كتب في فبراير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين في مجلته عنوانه «الرجل الذي سرقه الانجليز» يدعو فيه الى إعادتي الى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا في تلك الظروف .

ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتي من عملي في لندن فوضعت القيادة في مصر في موقف حرج والغريب أن الملحق العسكري في السفارة المصرية بلندن طلب مني الا اشترك في العمل الجماهيري في بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور انني سأقف في هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتباري مفصولا من الجامعة لكني رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذي أملاه عليّ ضميري الوطني وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر في موقفه من الجزائر وباندونج .

ولقد تعاونت في هذا النشاط مع حركة تحرير المستعمرات، التي كان الجناح اليساري من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها (تونى بن وآخرون) واشتركت بهذه الصفة في اجتماعات جماهيرية حاشدة في المدن البريطانية المختلفة، انتهت الى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثي على مصر بأيام ،

وبعد هذا الاجتماع بأيام عدت الى القاهرة عن طريق الخرطوم التي بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة في أوائل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيي الدين بالعمل معه في صحيفة المساء. وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعي إلى صحفي منقطع للعمل في بلاط صاحبة الجلالة.

مسيرة حياتي الجامعية

على غير ما اعتاد أساتذة الجامعات أتيح لي أن أعمل في الجامعات الثلاث الأساسية في مصر - جامعة القاهرة ، جامعة عين شمس ، وجامعة الاسكندرية .

لقد تخرجت في كلية العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٤٤ ، وعندما سارعت جامعة الاسكندرية بتعييني معيدا في قسم الرياضيات كلية العلوم رحبت بهذا التعيين على الفور ، وآثرت البقاء في الاسكندرية ، رغم أنه عرض عليَّ بعد ذلك بشهور فكرة تعييني بعلوم القاهرة لكنني اعتذرت .

كنت مبهورا بمدينة الاسكندرية وجوها ، بعد أن زرتها لأول مرة في صيف ١٩٤٢ مع بعض أقاربي ومكثنا فيها شهرا . وكنت أيضا حريصا على أن أعيش مستقلا عن عائلتي في القاهرة ، معتمدا على نفسي في تدبير شئون حياتي بدلا من الاعتماد على شقيقاتي اللائي أخذن مسئولية والدتي في المنزل بعد وفاتها عام ١٩٤٠ .

والأهم من ذلك أنني كنت قد بدأت في العام الأخير من دراستي بكلية العلوم بالقاهرة أتصل بعدد من المعيدين بالكلية ، وعلى رأسهم عبد المعبود الجبيلي وشكري سالم وعبد الرحمن الناصر ، الذين بدأوا في تشكيل حلقات ماركسية لمناقشة الأوضاع في مصر ، وعلى وجه الخصوص الاحتلال البريطاني ، والإصلاح الزراعي ، نقابات العمال وتحسين أوضاعهم ، وفي النهاية ضرورة الإعداد للثورة على الأوضاع الراهنة .

وازدادت قناعتي بهذه الافكار وقرأت عددا من الكتب الماركسية في الاقتصاد والفلسفة والسياسة ، وبدأت أنتظم في حضور ندوات دار الأبحاث بشارع نوبار . وعندما عينت معيدا - بالاسكندرية وجدتها فرصة سانحة لبدء حركة اشتراكية مصرية جديدة في أوساط الطلاب الجامعيين والمعيدين . وأكد لي أصدقائي من المعيدين أهمية بقائي بالاسكندرية لفتح جبهة نشاط سياسي مصري فيها ، وقد رشحت في سنوات ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ لبعثات أجنبية ، لكني لم

اذهب لأنني كنت أنذاك منهمكاً في العمل السياسي بالاسكندرية وكنت مقتنعا أن الثورة على الأبواب وأن المساهمة فيها أهم من الحصول على درجات علمية مثل الماجستير والدكتوراة .

محاولة اعتقال

والحقيقة أنني كنت منهمكا في الاسكندرية في العمل السياسي في الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٠ ، وتعرضت لمحاولة اعتقال في يوليو سنة ١٩٤٦ ضمن حملة صدقي المشهورة ، لكنني أفلت من الاعتقال وبقيت مختفيا بالاسكندرية حتى أفرج عن جميع المعتقلين بعد شهرين عندما عدت إلى الجامعة.

وفي مايو سنة ١٩٤٨ أصدر النقراشي أمرا باعتقالي ضمن آخرين عديدين ، ومع أنني نجحت مرة أخرى في الهرب إلا أنني وقعت في المصيدة عندما ذهبت لحضور أحد الاجتماعات في شقة بسيدي بشر ، وكان المقيمون فيها قد اعتقلوا قبلي . وبقيت في معتقل أبو قير عدة شهور ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل الهايكستب (في طريق الاسماعيلية) ثم

نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور حيث بقينا فيه حتى الانتصار الانتخابي للوفد في يناير سنة ١٩٥٠ فأفرجت عنا حكومته الجديدة .

ولست معنيا في هذا المقال بالحديث عن نشاطي السياسي بالاسكندرية فربما أعود إلى ذلك في مقال آخر . لقد أردت فقط في هذا المقال الإشارة إلى أنني عدت إلى كلية العلوم بالاسكندرية فور الإفراج عني في أول عام ١٩٥٠ ، كما عاد الكثير من المعيدين الذين سبق اعتقالهم مثلي ، أو الذين كانوا : أفلحوا في الهرب . وأظن أن عددنا كان ثمانية أو تسعة . لكننا أحسسنا أن ثمة تقاعسا بالكلية عن تسليمنا العمل من جديد . ويبدو أن الفكرة التي سيطرت على قيادة الجامعة آنذاك هي نقلنا من الجامعة إلى التعليم العام ، وأظن أن هذه الفكرة كانت تدور في ذهن مدير الجامعة آنذاك صادق جوهر الذي كان معروفا عنه صلته الوثيقة بالسراي الملكية .

لكن طه حسين كان وزيرا للتعليم ، وقد نجحت في مقابلته وشرحت له الوضع ، كما نجح آخرون في عرض قضيتنا

عليه، فجاء موقفه حاسما بضرورة عودتنا إلى كلياتنا ، وهذا ما تم في نهاية المطاف .

بعد الإفراج عني عام ١٩٥٠ كان تفكيري قد تغير عما كنت اعتقدته عند تخرجي بالتفاؤل المبالغ فيه بقرب قيام الثورة الاشتراكية ، فقد انتهى بطبيعة الحال . لقد ظلت ثقتي في أفكاري قائمة . كما هي . لكنني أدركت لأول مرة أن الزمن سيطول قبل حدوث مثل هذا التحول الذي كنت أحلم به، وعلى هذا فلا بأس من بقائي في الجامعة ومن الحصول على شهادة الدكتوراه ، وهو شرط البقاء في الجامعة .

في لندن

وهكذا سافرت إلى انجلترا في سبتمبر سنة ١٩٥٠ والتحقت بالكلية الامبراطورية بجامعة لندن . ووفقت في الحصول على الدكتوراه في الإحصاء الرياضي في سبتمبر ١٩٥٢ وعدت إلى مصر بعد قيام ثورة يوليو بشهرين وبالطبع لم أنقطع عن النشاط السياسي وأنا في لندن .. فأتذكر أنني أنشأت مع آخرين اللجنة الوطنية المصرية وكان من أعضائها

الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد ، وقد عقدنا اجتماعا ضخما في النـادي المصري بلندن حضره مئات من الطلاب المصريين بعد حدوث حريق القاهرة في يناير سنـة ١٩٥٢ ، وأعلنا احتجاجنا على الأوضاع في مصر ضد الأحكام العرفيـة ، وضد عزل حكومة الوفد ، وأتذكر أن الدكتور عبد الحميد أمين (نجل الكاتب الكبير أحمد أمين) وقف في الاجتمـاع مطالبا بتنازل الملك فـاروق عـن العـرش .

كما أيدت هذه اللجنة (بعد دعوة أخرى للطلاب في يوليو سنة ١٩٥٢) ثورة الضباط خصوصا بعد قيامهم بإسقاط فاروق والإعلان عن نيتهم في الإصلاح الزراعي .

عدت إذن في سبتمبر سنة ١٩٥٢ إلى مصر ، وذهبت إلى الاسكندرية لاستلام العمل ، لكن جامعة الاسكندرية لم يكن يبدأ العام الدراسي فيها إلا في أواخر أكتوبر في تلك الأيام ، وهكذا أقمت في القاهرة حتى تبدأ الدراسة في الاسكندرية عندما حدث لي تحول مفاجيء .

اتصل بى الدكتور طلبة عويضة ، وكان المدرس الوحيد فى قسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة ، وأبلغنى أن رئيس القسم – الدكتور محمد مرسى أحمد (وزير التعليم العالى بعد ذلك أيام السادات) يريد أن يرانى . وكنت أرتبط معه تاريخيا برباط الود والتقدير منذ أن كنت رئيسا للجمعية الرياضية الطبيعية وأنا طالب فى سنة البكالوريوس . وهكذا ذهبت إلى مقابلته بالكلية بالجيزة فإذا به يفاجئنى بعرض تعيينى فى قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة فى مكان طلبة عويضة الذى كان سوف يعار لجامعة بغداد . وعندما أبديت له شكى فى أن توافق جامعة الاسكندرية على ذلك ، قال لى : المهم أن توافق أنت واترك الباقى لى .

وبالفعل وافقت وأنا لا أصدق أن هذا سوف يتم ، لكن قرار من وزير التعليم بنقلى من جامعة الاسكندرية إلى جامعة القاهرة صدر بعد هذا اللقاء بأربعة أيام ، رغم استياء جامعة الاسكندرية ومحاولتها تعطيل هذا النقل بعض الوقت .

أزمة مارس

استلمت عملي إذن مدرسا في قسم الرياضة البحتة بعلوم القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٥٢ ، وكانت سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ، ١٩٥٣ – ١٩٥٤ صعبة للأحداث السياسية التي وقعت فيها ، ويكفي أن أذكر محاكمة خميس والبقري في كفر الدوار أمام مجلس عسكري والحكم بإعدامهما وتنفيذ هذا الحكم الجائر ، وأن أذكر الصراع الذي جرى بين رئيس الجمهورية محمد نجيب وبقية أعضاء مجلس الثورة ، وموقف خالد محيي الدين في هذه المعمعة ، وكنا بطبيعة الحال نتعاطف معه ، ومحاكمات الضباط التي جرت في تلك السنوات ، وما جرى في أزمة مارس ١٩٥٤ .

ولقد بدا لنا – نحن أساتذة الجامعة – أن الحل الصحيح إزاء كل هذه الأحداث العاصفة هو في عودة الحياة النيابية وحل مجلس قيادة الثورة وعودة الجيش إلى ثكناته ، ووقع عدد منا مذكرة بهذا المعنى لرفعها إلى المسئولين .

وسافرت في أول صيف ١٩٥٤ إلى انجلترا لاستكمال بعض أبحاثي العلمية التي كانت في حاجة إلى حسابات لم تكن متاحة بالقاهرة . وفي لندن عرض علي أستاذي وظيفة محاضر أول Senior Lecturer في كلية تشيلسي للعلوم والتكنولوجيا فاعتذرت لأنني كنت أدرك أن جامعة القاهرة لن توافق علي ذلك . وعندما عدت إلى مصر في أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ فوجئت بصدور قرار من مجلس قيادة الثورة في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات معظمهم ممن وقعوا علي المذكرة إياها في مارس سنة ١٩٥٤، وكان من بين هؤلاء محمود العالم، عبد المنعم الشرقاوي ، توفيق الشاوي ، لويس عوض ، فوزي منصور ، وكاتب هذه السطور .

وأبرقت إلى أستاذي الانجليزي بموافقتي علي تعييني في لندن ، وشرحت له في خطاب خاص ظروف فصلي من الجامعة . وقد استطعت السفر إلى بيروت في نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ومكثت بها أربعة شهور محاضرا في فرع معهد

الإحصاء الدولي ببيروت حتى صدر قرار تعييني في لندن في أول سنة ١٩٥٥ فسافرت إلى انجلترا وبدأت عملي هناك بالجامعة .

كنت – منذ عودتي إلى مصر عام ١٩٥٢ – مواظباً على نشر مقالاتي الأسبوعية في مجلة روز اليوسف ، بل لقد وصل الأمر – عندما التحق فتحى غانم بأخبار اليوم – أن كلفنى الأستاذ إحسان عبد القدوس بتحرير باب «أدب» في المجلة وواظبت على هذا شهوراً عدة .

ولقد حرصت بعد أن استقر بي الحال في لندن على مراسلة مجلة روز اليوسف بمقالاتى فى قضايا الثقافة والعلم والأدب . وكتب إحسان عبد القدوس فى مارس سنة ١٩٥٥ مقاله الشهير (الرجل الذي سرقه الانجليز) دعا فيه إلى عودتي إلى الجامعة فى مصر – ورديت عليه بمقال موجز أرحب فيه بهذه العودة إن وافق المسئولون .

التفرغ للواجب الوطني

لكن المسئولين لم يوافقوا بالطبع ، وهكذا بقيت في لندن حتى يوليو سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبد الناصر قناة

السويس ، وأحسست بطبيعة الحال أن واجبي أن أدافع عن هذا العمل وأن أشرح في اجتماعات النقابات في بريطانيا تاريخ المظالم التي وقعت على شعب مصر عند بناء هذه القناة وسيطرة الأجانب عليها .

وحرصا مني على عدم إحراج الكلية التي أعمل بها قررت الاستقالة من عملي والتفرغ لهذا الواجب الوطني . وبالفعل ذهبت إلى مدن بريطانيا المختلفة حيث كان الطلب شديدا على توضيح وجهة نظر مصر في التأميم . وكانت الاجتماعات هي في الأساس اجتماعات دعت إليها نقابات العمال التي عارضت الحرب ضد مصر . وانتهت الأمور إلى اجتماع الطرف الأغر الشهير الذي خطب فيه نواب حزب العمال كما خطبت فيه شارحا وجهة نظر مصر. ولقد قدر أيامها أن عدد من حضروا هذا الاجتماع الجماهيري يزيد عن الخمسين ألفاً.

وهكذا عدت إلى القاهرة من جديد في ديسمبر سنة ١٩٥٦ ولم أكن أدري ماذا سأفعل بالقاهرة . وبعد وصولي

بأيام فوجئت باتصال من خالد محيي الدين - وكان قد بدأ في إصدار جريدة المساء - يعرض عليَّ أن أعمل معه في الجريدة .

أصبحت صحفيا

وبطبيعة الحال وافقت لأنه لم يكن هناك عمل آخر ، وهكذا أصبحت صحفيا بعد أن كنت مدرسا جامعيا ، وبدأت أكتب في الشئون العربية وساعد على ذلك أن الجريدة أرسلتني في زيارات عربية متعددة ، منها مثلا أنني كنت أول صحفي مصري يدخل قطاع غزة بعد جلاء اليهود عنها في يناير سنة ١٩٥٧ ، كما سافرت إلى الأردن وسوريا ولبنان والعراق ، واجتمعت بعدد من زعماء تلك البلدان ، وأدى عملي الصحفي إلى توثيق صلتي بهم .

وقد ظللت في هذا العمل الصحفي إلى يناير سنة ١٩٥٩ حيث جرى اعتقالي مرة أخرى ضمن حملة اعتقال جميع اليساريين المشتغلين بالعمل العام . ومن أطرف ذكريات تلك المرحلة (مرحلة العمل في جريدة المساء) أنني كنت قد أرسلت

بحثين علميين إلى مجلة بيومترمكا "Biometrica" البريطانية وأنا في لندن . ولم تتيسر الموافقة على نشرهما ونشرتهما فعلا إلا بعد تركي بريطانيا والتحاقي بجريدة المساء . ولا أعرف كيف أرسلت المجلة العلمية نسخا من بحوثي على جريدة المساء . وطبعا كنت منهمكا آنذاك في شئون الصحافة حتى بدت لي هذه الأبحاث وكأنه شيء غريب عليّ مع أنني كاتبها منذ سنتين .

والأغرب من هذا أنني فوجئت ذات صباح في جريدة المساء بمدير جامعة أسيوط – الدكتور سليمان حزين – يطرق بابي ورحبت به كثيرا وإن كنت لم أدرك سبب الزيارة ، وقال لي إنه كان في زيارة لأستاذي محمد مرسي أحمد ، وكان آنذاك وكيلا لجامعة القاهرة يسأله أن يرشح لجامعة أسيوط . أستاذا مساعداً للرياضة البحتة في كلية العلوم ، وأن الدكتور مرسي رشحني !!

وقلت له أنني غارق لأذني في عملي الصحفي بالقاهرة وأنا أفضله طبعا على عملي بأسيوط وعلى أية حال ، فقد كان

تفسيري أن كمال الدين حسين وزير التعليم آنذاك لن يوافق على عودتي إلى الجامعة .

لكن سليمان حزين كان حريصا على تعييني بأي شكل ، وقال لي أن هناك طائرة يومية بين القاهرة وأسيوط وأن المطلوب فقط هو أن أذهب إلى أسيوط يومين أسبوعياً أحاضر فيهما في الرياضة البحتة ، ولا مانع من أن أستمر في عملي بالصحافة بقية أيام الأسبوع ، أما موافقة كمال الدين حسين فقد قال حزين : أترك لي هذا الأمر وأنا كفيل بإقناعه .

وبالفعل أعلنت جامعة أسيوط في الصحف عن وظيفة أستاذ مساعد في الرياضة البحتة ، وخوفا من أن أكون لم أنتبه للإعلان أرسل لي سليمان حزين نسخة منه وطلبا للتعيين لكي أملأه وبالفعل أرسلت طلب التعيين إلى جامعة أسيوط بعد أن ملأته . وبقيت منتظرا النتيجة .

إلى أن فوجئت بدخول سليمان حزين مرة أخرى إلى مكتبي في جريدة المساء وقال وهو في أشد حالات الخجل أنه

فشل في إقناع كمال الدين حسين بالموافقة على تعييني أستاذاً مساعداً بجامعة أسيوط .

وهكذا بقيت في عملي الصحفي إلى أن جرى اعتقالي في حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ ضمن مئات من اليساريين المصريين ، ثم جرى تقديمي إلى مجلس عسكري برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال مدير سلاح المدفعية ، وكان معي في المحاكمة الدكتور فؤاد مرسي والدكتور إسماعيل صبري والاستاذ محمد سيد أحمد والأستاذ محمود العالم وآخرون ، وربما كان العدد الذي قدم للمحاكمة واحداً وستين .

مع أن هذا المجلس العسكري حكم ببراءتي إلا أنني بقيت في معتقل الواحات حتى ٣ إبريل سنة ١٩٦٤ عندما صدر قرار عبد الناصر بالإفراج عن كل اليساريين . لقد بقيت في المعتقل خمس سنوات وثلاثة شهور . خرجت بعدها وأنا لا أعرف إن كنت سوف أعود للعمل للصحافة أم لا .

لكنني فوجئت بصدور قرار جمهوري بتعييني مديراً عاما للبحوث في وزارة الخزانة في يوليو ١٩٦٤ ، وكان وزير

الخـزانة آنذاك (الدكتور نزيه ضيف) زميلا لى فى الدراسة بالمرحلة الثانوية ، وكان هو الذى أبلغ عبد الناصر باحتياجه لى للعمل معه بالوزارة .

ومع أننى لم أكن متحمساً أبدا للعمل بالدواوين الحكومية إلا أننى بالطبع شكرت الدكتور نزيه على مبادرته ، وبقيت أعمل معه فى مكتبه نحو عام ونصف العام إلى أن اتصل بى أستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد – وكان آنذاك مديرا لجامعة عين شمس – وأبلغنى أن كرسى الرياضة البحتة فى علوم عين شمس قد أصبح شاغراً بوفاة شاغله ، وأنهم ينوون أن يعلنوا عن هذه الوظيفة فى الصحف واقترح أن أتقدم ضمن المتقدمين .

عبد الناصر يوافق على تعيينى بالجامعة

وبالفعل تقدمت بطلب لشغل هذا الكرسى ، وخوفا من أن أواجه معارضة أجهزة الأمن فى عودتى إلى الجامعة – أرسلت خطابا إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل أشرح له الموقف وأرجوه التدخل حتى لا يتعطل الموضوع مرة أخرى

كما حدث في الجامعة أسيوط ، وكان الأستاذ هيكل كريما في موقفه ، فقد اتصل بالرئيس عبد الناصر فعلا ثم اتصل بي هاتفيا وأكد لي موافقة الرئيس عبد الناصر على عودتي إلى الجامعة إن رأت الجامعة أنها في حاجة لي .

وقد اختارتني اللجنة العلمية لشغل كرسي الرياضة البحتة فعلا ، وبقيت شهرين بعد ذلك إلى أن أصدر مجلس جامعة عين شمس قرارا بتعييني .

وهكذا عدت إلى الجامعة في يناير ١٩٦٦ وبقيت فيها أدرس وأشرف على رسائل علمية حتى اليوم.

ذكريات الإسكندرية

عـشت في الإسكندرية ست سنوات (١٩٤٤ - ١٩٥٠) معيداً بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية ، وذكرياتي السياسية عن تلك الحقبة - إنما تعود إلى أكثر من خمسين عاماً . ومع أنني اشتهرت في شبابي بقوة الذاكرة ، إلا أن وضعي الحالي - وقد بلغت السابعة والسبعين - لا يسمح لي بالثقة الكاملة في هذه الذاكرة ، وقد حاولت أن أستعيد مع بعض الأصدقاء ممن زاملوني في تلك الحقبة بالاسكندرية ، بعضا من هذه الذكريات وأحداثها .. ولذلك فإنني أرجو ألا أكون قد أخطأت في بعض التفاصيل .

ولقد أشرت في مقال سابق (هلال - ديسمبر ٢٠٠٠) إلى مجموعة المعيدين في كلية العلوم الذين شكلوا حلقة دراسية ماركسية لمناقشة الأوضاع في مصر ، خصوصاً الاحتلال البريطاني ومشكلة الفقر ، وكانت هناك بالقاهرة حلقات أوسع بكلية العلوم كانت لنا نموذجا يحتذى .

وبالطبع سعينا إلى تدعيم صلاتنا بقوى المعارضة الأخرى في أوساط الشباب ، وخصوصاً شباب الطليعة الوفدية ، وإلى

حد ما شباب مصر الفتاة من الطلاب ، كما سعينا إلى تجنيد أعداد من طلاب الجامعة إلى وجهات نظرنا وإلى حلقتنا ونجحنا في ذلك نجاحاً كبيراً فأصبحت لدينا أعداد غير قليلة في كليات العلوم والحقوق والطب والآداب في زمن قصير ، وهكذا تشكل تنظيم ماركسي داخل جامعة الاسكندرية . ومع أن اهتمامنا انصرف في مبدأ الأمر إلى تثقيف الأعضاء بالفكر اليساري ، مع تجنب العمل السياسي قبل أن تتكون مجموعة فكرية يوثق بها ويعتمد على مبادراتها ، فإن أحداث البلاد السياسية المتسارعة قد اضطرتنا إلى دخول حلبة العمل السياسي مستعينين في ذلك بصلاتنا القوية بالطليعة الوفدية التي كانت تتقارب في آرائها السياسية مع آرائنا .

ولقد وقعت أحداث ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ بالقاهرة وقادت هذه الأحداث اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي كان الماركسيون القاهريون عمادها ، وكان اسماعيل صدقي هو رئيس الوزراء آنذاك . ولقد أطلق جنود الاحتلال البريطاني من ثكنات قصر النيل (مكان فندق هيلتون النيل ومبنى

الجامعة الحربية اليوم) النار على المتظاهرين فسقط عدد من الشهداء والجرحى وأدى هذا إلى غليان وطني عارم .

ومع أن الاسكندرية لم تشترك في أحداث ٢١ فبراير ، فإن أحداث ٤ مارس بالاسكندرية كانت تجاوبا مع ما حدث بالقاهرة ، وإن كانت أكثر عنفاً من جانب المتظاهرين الذين أحرقوا مراكز حراسة القوات البريطانية في محطة الرمل وفي أماكن أخرى ، ومات في هذه الأحداث عدد من الجنود البريطانيين .

لقد كانت هذه السنوات هي سنوات مفاوضات إسماعيل صدقي مع وزير خارجية بريطانية إيرنست بيفن ، التي انتهت في آخر الأمر بما عرف باتفاق صدقي - بيفن ، وكانت كل القوى الوطنية في مصر معارضة لمشروع هذا الاتفاق ، وكان حزب الوفد بما له من نفوذ واسع في مقدمة المعارضين .

معارضة اتفاق

صدقي – بيفن

وأتذكر أنه في شهر أبريل من عام ١٩٤٦ قامت مظاهرة من كليتي العلوم والحقوق بجامعة الاسكندرية (وكانت هاتان الكليتان تشغلان مباني مدرسة العباسية الثانوية التي تقع على ربوة عالية في حي محرم بك) للتعبير عن معارضة مشروع اتفاق صدقي – بيفن ، وكانت قوات الشرطة تقف أسفل الربوة لاعتراض المظاهرة وتفريقها بالقوة إن لزم الأمر.

ثم وقع حادث مفاجيء ذهلنا له جميعاً ، ذلك أن طالباً من فوق الربوة أطلق النار على أحد ضباط الشرطة فأرداه قتيلاً، وحتى اليوم لا نعلم من هو هذا الطالب الذي قام بهذا العمل الاستفزازي الدنيء وإن كانت شكوكنا آنذاك اتجهت إلى شباب مصر الفتاة من الطلاب .

وبالطبع كان رد فعل الشرطة عنيفاً ، إذ حوصرت مباني الكليتين بالكامل وأطلق الرصاص على مباني الكلية بشكل

عشوائي وألقي القبض على أعضاء هيئة التدريس الذين حاولوا الخروج إلى الطريق العام . وظل هذا الحصار مضروبا حول الجامعة من الصباح إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم (محمد العشماوي باشا) من القاهرة بالطائرة وأمر برفع الحصار عن الجامعة التي احتلتها قوات الجيش في الصباح .

وقمنا ونحن محاصرون بكتابة مذكرة احتجاج على هذا الحصار . ونجحنا في الحصول على توقيع عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس على المذكرة ، وكان في مقدمة الموقعين عميد كلية العلوم الدكتور حسين فوزي وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطي خيال ، وإن كان بعض أساتذة كلية العلوم قد رفضوا التوقيع .

وكانت المشكلة بعد جمع التوقيعات هي كيفية إرسال المذكرة إلى صحيفة المعارضة الرئيسية : الوفد المصري . وتفتق ذهني عن حل ، وهو أن أتصل تليفونيا بصديق لي بالإسكندرية وأن أملي عليه نص المذكرة التي كانت قصيرة

على أي حال ، ولما ذهب هذا الصديق إلى مكتب التلغراف لإرسال البرقية رفض موظف البريد إرسالها وعليها توقيع عام مثل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، وصمم على وجود اسم لشخص يمكن مساءلته . ولم يجد هذا الصديق مفرا من إعطاء اسمي . وهكذا ظهرت برقية الاحتجاج في اليوم التالي في صحيفة الوفد المصري وعليها التوقيع التالي : أعضاء هيئة التدريس (عنهم عبد العظيم أنيس) .

وبالطبع هاج صدقي باشا من هذه البرقية وطلب من العشماوي باشا التحقيق في الموضوع . وظن الوزير أن الموقع على هذه البرقية استاذ بالجامعة وليس معيداً صغيراً واستدعاني إلى مكتب مدير الجامعة للتحقيق معي وحضرت في صحبة الدكتور حسين فوزي عميد الكلية ، وكان من حسن حظي أنه كان في جيبي نص مذكرة الاحتجاج وعليها التوقيعات بما في ذلك توقيع عميدي العلوم والحقوق ، وعندما قدمتها للوزير وأكدت له أن هذا كان موقفا جماعياً أسقط في يده ولم يستطع محاكمتي .

لكن اسمي ظل محفوراً لدى السلطات فى انتظار مناسبة أخرى للانتقام ، وجاءت هذه المناسبة فى يوليو عام ١٩٤٦ فى حملة صدقى المشهورة التى أعتقل فيها العشرات من المثقفين المصريين بما فى ذلك محمد مندور وزكى عبد القادر ، وكنت بطبيعة الحال فى طليعة المطلوب اعتقالهم بالاسكندرية .

الحظ فى صالحى !

لكن الحظ لعب دوره مرة أخرى فى مساعدتى ، فقد كنت كثير التردد على منزل نائب سعدى يحرم بك بالاسكندرية لصلة تربطنى بأولاده ، وظن البوليس أننى أقيم هناك ، وهكذا ذهبوا لتفتيش منزله وهم لا يعلمون أنه نائب بالبرلمان . فلما سألهم إن كان لديهم أمر من رئيس البرلمان بذلك أسقط فى أيديهم ثم اتصلوا بحكمدار الاسكندرية يسألونه الرأى قبل تفتيش المنزل فأمرهم بتفتيش المنزل مهما كان الأمر .

وبالطبع لم يجدونى ولم يجدوا أى شيء يهمهم ولم يسكت النائب إذ تقدم باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات قد بدأت تسوء بين رئيس الوزراء وحزب السعديين ، فاشتعلت

جلسة البرلمان هجوماً على الحكومة وعلى رئيسها . وألقى صدقي باشا بياناً فى البرلمان قال فيه إن التفتيش تم بحثاً عن محمد شيوعى ، وأن الضابط الذى قام بذلك نقل إلى أسوان عقاباً له على هذا الخطأ . وصدرت الصحف بمانشيت عريض في الصفحة الأولى بوقائع الجلسة واسمي بطبيعة الحال موجود في ذلك المانشيت !

وقد قرأت كل ذلك وأنا أقيم عند صديق قاهري يملك فيلا بالاسكندرية ولم أسلم نفسي للشرطة حتى انتهت القضية بالإفراج عن الجميع . فعدت إلى الجامعة وسألني وكيل النيابة أسئلة شكلية ثم أفرج عنى فى الحال خصوصاً عندما علم بإضراب طلاب كلية العلوم احتجاجا على اعتقالي . وطلب وكيل النيابة منى الذهاب إلى الكلية فوراً حتى يراني الجميع وينتهي الموضوع ، وهو ما تم بالفعل .

***

الحدث الثاني المهم الذى جرى بالاسكندرية وأدى إلى اشتعال مد ثورى بها هو موضوع إضراب الشرطة يومى ٥ و

٦ ابريل من عـام ١٩٤٨ ، وبالطبع فـهـذا الإضـراب شـمل القاهرة والاسكندرية وبعض المدن الأخرى . وكان الأساس في هذا الإضـراب هو المطالبة بزيادة الرواتب ، وبالطبع كان لهذا الحدث طعم خاص لأنه لم يسبق له وقوع ، ولم تكن قوى التمرد في مصر يد فيه ، ولكنه أخذ طعما خاصاً بالاسكندرية إذ تحـول إلى هبة شـعـبـيـة شـملت كل طوائف الشـعب ، وخـصـوصـاً العـمـال والطلاب الذين سـاندوا المظاهرات التي قامت بها قوات الشرطة بالاسكندرية وانضموا إليها وامتلأت بهم سـاحات الميادين العامة وخصوصاً ساحة المنشية وكان جنود الشـرطة يمضـون في مظاهراتهم رافـعين بنادقـهم إلى السماء وعلى أعلا كل سونكي منها رغيف عيش .

وشعر الشعب أنه بلا حكومة تتحكم في أعماله ، حتى أن بعض الظرفاء من أبناء الشعب كانوا يصيحون في الشعراء وهم يضـحكون : «مافيش حكومة ، اللي عايز يشلح النهاردة يقدر» .

وقد كان لهذا الهيجان الشعبي بالاسكندرية أسبابه الخاصة ، وأتذكر على وجه الخصوص مسألتين ساهمتا في هذا الالتهاب الشعبي أولاهما مطالب العمال بعدما توقفت بعض المصانع عن العمل أو استغنت عن بعض العمال أو خفضت أجورهم وبمعنى آخر كان هناك اختمار ثوري عمالي خصوصاً في أوساط عمال مصانع كرموز كالغزل الأهلية . ولقد كان الطلبة ومعيدو الجامعة اليساريون متحمسين للدفاع عن مطالب العمال وتعبئة الرأي العام السكندري في صفهم . وساعد على ذلك أن زملاءنا في القاهرة كانوا قد بدأوا في إصدار صحيفة أسبوعية تسمى «الجماهير» وكنا نحن المعيدين نقوم بتوزيع هذه المجلة علناً في أحياء العمال بالاسكندرية وعلى محطات ترام الرمل ، وكان هذا محل اندهاش أساتذة الجامعة الذين كانوا يشاهدوننا وهم في الترام ونحن على الأرصفة ننادي على جريدة الجماهير كأي بائع صحف .

أما المسألة الثانية ذات الصلة فهي ما عرف بالاسكندرية بمسألة سعد فريد .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قام بتوزيع منشور مساند للعمال في حي كرموز ، وقد قبضت عليه الشرطة قبل أحداث ٥ و ٦ إبريل ومعه العديد من نسخ المنشور ، ويبدو أن الحكومة قد رأت فرصة في هذا الموضوع لتأديب طلاب الاسكندرية الشاغبين فأجرت لسعد فريد محاكمة سريعة وحكمت عليه المحكمة بسنة أشهر سجناً، وقد أثار الحكم على سعد فريد ثائرة طلاب الجامعة ، فقد كان هذا أول حكم بالسجن يصدر على طالب بالجامعة لعمل سياسي.

وبدأت إضرابات الطلاب ، لكنها لم تحقق نتيجة في مسألة سعد فريد . ثم جاء إضراب البوليس وامتلأت ساحات الاسكندرية – وخصوصاً المنشية – بالجماهير الثائرة ، وأثار الطلاب المشتركين في المظاهرات مسألة سعد فريد من جديد، وقررت مجموعة منهم الاتجاه إلى سجن الحدرة لإخراج سعد فريد منه لكن سلطات سجن الحدرة أوهمتهم أن سعد فريد أفرج عنه فعلاً .

في هذا الجو الجماهيري الثائر ينبغي أن أذكر واقعتين هامتين .

الأولى أننا قررنا توزيع منشور باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني يساند المطالب الشعبية سواء مطالب الشرطة أو العمال أو الطلبة ، وقد صدرنا هذا المنشور بشعار جديد «سقطت الملكية وتحيا الجمهورية » وكان هذا أول منشور يوزع في مصر تحت هذا الشعار الثوري ، وقد أشارت إليه صحيفة الأهرام في اليوم التالي وإن لم تذكر الشعار نفسه واكتفت بالقول إن منشورا ثوريا وزع بالاسكندرية .

وللتاريخ كان الشاعر كمال عبد الحليم هو الذي كتب الصياغة الأولى للمنشور وإن كنت قد عدلت فيه ، وقمت بطبع المنشور في مطبعة عادية في محرم بك قبلت طبعه لأنه لا توجد حكومة ! وأشرفت على توصيله لمن قاموا بالتوزيع في أحياء الاسكندرية المختلفة .

أما الواقعة الثانية فتتعلق برد حكومة النقراشي على ما يجري بالاسكندرية . فقد أنزلت قوات الجيش وملأت دباباته

الميادين العامة وبدأت قواته في إطلاق الرصاص على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى ، وجرى هذا خصوصاً في ميدان المنشية ، وكنت من مشاهدي أحداثه .

إعلان الأحكام العرفية !

وفي ظني أن أحداث الاسكندرية الثورية كانت من العوامل التي جعلت حكومة النقراشي تنتهز فرصة إرسال قوات مصرية إلى فلسطين لكي تعلن الاحكام العرفية في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وتعتقل كل القوى النشيطة سياسياً من اليسار وشباب الوفد ، ثم جرى بعد ذلك اعتقال شباب الإخوان المسلمين عندما توقفت الحرب في فلسطين وأعلنت الهدنة .

ومع أنني أفلت بالمصادفة من الاعتقال في ١٥ مايو فإنني اعتقلت في شهر يونيو ، وكنت ذاهبا لحضور اجتماع في منزل د. شريف حتاته بالسيوفي ، لكنه كان قد تم اعتقاله قبل ذلك بيوم هو والشاعر كمال عبد الحليم ، ورتبت الشرطة كميناً داخل المنزل للقبض على كل من يزور المنزل ، وهكذا

وقعت في كمين ونقلت إلى معتقل ابو قير ، وبقيت فيه لمدة ستة أشهر ثم نقلت مع آخرين من اليساريين وشباب الوفد إلى معتقل هاكستيب في طريق الاسماعيلية ، وبعد عدة أشهر نقلت مع آخرين إلى معتقل الطور على البحر الأحمر إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا ، وقد أدى هذا الاضراب إلى مرضي بعد أن كان قد انتهى بوعد من المسئولين المحليين بتحسين ظروف حياتنا .

وكانت وزارة حسين سري قد عادت للإعداد للانتخابات وكان فؤاد سراج الدين (باشا) وزيرا للزراعة في تلك الحكومة وتحدث أخي الكبير ابراهيم معه عن طريق بعض أصدقائه من الوفديين حول ظروفي الصحية وأدى هذا إلى نقلي إلى معسكر هاكستيب حيث حضرت لجنة طبية لفحصي ثم أصدرت قرارها بنقلي إلى مستشفى الدمرداش للعلاج من التهاب كبدي وبائي . وبقيت في المستشفى قريباً من منزل

أهلي حتى جرت الانتخابات في آخر عام ١٩٤٩ ، وحصل الوفد على أغلبية مقاعد البرلمان وتشكلت حكومة الوفد التى أفرجت عن جميع المعتقلين في يناير عام ١٩٥٠ .

***

بقيت نقطة واحد ينبغي توضيحها ، فقد ورد في أحد كتب الدكتور رفعت السعيد في وصفه لأحداث الاسكندرية أنني وقفت في ميدان المنشية بين المتظاهرين وألقيت قصيدة هذا مطلعها .

عساكر الجيش والبوليس خطيكم

خطب البلاد فعابوا عن بعابيها

وبالطبع وسط أزيز رصاص دبابات الجيش لم يكن هناك مجال لإلقاء قصائد ولا يحزنون . والحقيقة أن هذه القصيدة ألقيت في احتفال بمعتقل الطور بعد مرور سنة على إضراب البوليس ، وقد حضر جنود وضباط الشرطة بعد في المعتقل هـذا الاحتفال وصفقوا كثيراً للخطب والقصائد التى ألقيت فيه .

ذكريات لندن

عشت في لندن فترتين متقاربتين من حياتي . الفترة الأولى هي التي كنت أعد فيها رسالة الدكتوراه ، وهي من سبتمبر ١٩٥٠ حتى سبتمبر ١٩٥٢ وبعدها عدت إلى القاهرة حيث عينت مدرسا بكلية العلوم جامعة القاهرة ، قسم الرياضة البحتة .

وجاءت لي فرصة تعييني مدرسا بإحدى كليات جامعة لندن في الفترة من مارس ١٩٥٥ حتى نوفمبر ١٩٥٦ ، وهكذا عشت الفترة الثانية في لندن حتى جاء تأميم قناة السويس في يونيو سنة ١٩٥٦ فآثرت الاستقالة من عملي في لندن حتى أتفرغ للعمل الجماهيري الذي كان مطلوبا في بريطانيا للدفاع عن وجهة نظر مصر في تأميم القناة .

ولقد فكرت في الفترة الأولى – فترة دراسة – الدكتوراه- كيف يمكن خدمة شعب مصر ونحن في الخارج؟ وانتهيت مع زملاء أخرين إلى فكرتين أساسيتين : الأولى أن نعرف الشعب البريطاني بحقيقة ما يجري في

مصر قدر الإمكان ، ومن وجهة النظر الشعبية ، أى من وجهة نظر العمال والفلاحين والطبقة الوسطى وخصوصا شرائحها المثقفية .

والفكرة الثانية هي أن نكون على اتصال بالأحداث المهمة التي تجرى في مصر وأن نبدى رأينا فيها قدر الإمكان حتى يشعر المسئولون في مصر أن طلاب البعثات المصريين يفكرون في مصر ويطالبون أن يؤخذ رأيهم في الحسبان .

تشكيل لجنة وطنية

وقد وصلت إلى قناعة أن الخطوة الأولى لتحقيق هاتين الفكرتين تتمثل في تشكيل لجنة وطنية تكون بمثابة المحرك الأول لكل هذا العمل ، وهكذا تشكلت اللجنة الوطنية من الدكتور فايق فريد والدكتورة حكمت أبو زيد (التي أصبحت وزيرة الشئون الاجتماعية خلال حكم عبد الناصر) والدكتور محمد عبد الحليم وكاتب هذه السطور .

وكان العمل الأول لنا هو إصدار نشرة غير دورية توزع على النقابات البريطانية اسمها «السلام والاستقلال» وكان لهذا الاسم قصة أود أن أشرحها ، لقد سبقنا فى هذه العمل الصديق عبد المعبود الجبيلي الذي كان يدرس لدكتوراه الدولة في معمل كورى بباريس ، وقد أرسل لي نسخة من نشرته التي كانت تكتب بالفرنسية طبعا وتوزع على النقابات الفرنسية وتحتوى على المهم من أخبار مصر التي يهمنا إطلاع الرأى العام الأوروبى عليها .

وأرسل لي عبد المعبود نسخة من نشرته وابتدأنا في أول الأمر بترجمتها إلى الانجليزية وتوزيعها على النقابات البريطانية بالبريد، ثم أخذنا بعد ذلك فى تغيير مادة نشرتنا عن نشرة باريس وإن احتفظنا بالاسم نفسه «السلام والاستقلال» .

كما قمت عند وقوع أحداث مهمة في مصر بكتابة مقال تفسيرى فى صحيفة الحزب الشيوعى الانجليزى - الديلى وركر باسم مستعار هو «عى الأيوبى» Aouby ولكن لم يكن للجنة الوطنية علاقة بهذا العمل .

أما خدمة الفكرة الثانية التي تمثلت في أن نكون على صلة بأحداث مصر وأن نكون رأينا قدر الإمكان معروفا وذا تأثير على هذه الأحداث فقد تمثل ذلك في دعوة اللجنة الوطنية طلاب البعثات في مدن بريطانيا المختلفة إلى الاجتماع في النادي المصري بلندن ومناقشة هذه الأحداث ثم بإرسال رأينا إلى المسئولين في مصر بعد ذلك .

وقد حققت هذه الفكرة نجاحا كبيرا . ونجحنا في تنظيم عدة مؤتمرات في لندن في المناسبات الوطنية المختلفة ، في مقدمتها مناسبة قيام الوزارة الوفدية بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحوادث الصدام بين قوات البوليس المصري والجيش البريطاني في الاسماعيلية . وبالطبع أعلنا تضامنا مع إلغاء المعاهدة وأيدنا العمل البريطاني الوطني في أحداث الاسماعيلية .

أكبر مؤتمرين

إلا أن أكبر مؤتمرين دعونا إليهما وتوافد الطلاب المصريون من كافة المدن لحضورهما فكانا بمناسبة حريق

القاهرة في يناير ١٩٥٢ ثم بمناسبة وقوع الثورة في يوليو ١٩٥٢ .

في المؤتمر الأول الذي انعقد في ٢٨ يناير ١٩٥٢ (بعد حريق القاهرة) كان الطلاب في حالة غليان ، ومع أننا لم نكن نعرف على وجه اليقين من هم الذين قاموا بعملية الحريق ، فإن شكوكنا آنذاك كانت حول دور السراي الملكية في هذه العملية البشعة للتخلص من الوزارة الوفدية لكننا بالطبع لم نكن نملك أدلة حاسمة ، المهم أن هذه الشكوك انعكست في المؤتمر حين قام أحد طلاب البعثات الدكتور عبد الحميد أمين نجل الكاتب المعروف أحمد أمين وطالب الملك فاروق أن يتنحى عن العرش ، واحتبست الأنفاس بعد سماع كلمة عبد الحميد، ومما زاد من الحرج أن وكيل مكتب البعثات (دكتور عبد العزيز عتيق) كان حاضرا المؤتمر ، وهو بالناسبة زوج شقيقة الدكتور عبد الحميد أمين !

المهم انتهى المؤتمر بسماع إقالة وزارة مصطفى النحاس، وبقينا شهورا عدة في حالة غليان وإن كنا لا نعرف ماذا نفعل .

حتى فوجئنا بوقوع ثورة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد أثار هذا الحديث الكبير حيرتنا في مبدأ الأمر . إذ كيف يستولى الجيش على السلطة والقوات البريطانية موجودة في القنال ما لم يكن هناك تنسيق بينها وبين قادة هذا العمل ؟

كان هذا الخاطر الأول لنا . لكننا سمعنا أن هناك ضابطا (أحمر) في قيادة الثورة هو خالد محيي الدين ، وهذا يناقض الخاطر الأول .

واتجهت خواطرنا أيضا إلى دور أمريكي في هذه الحركة يوم أذيع أن على صبري كلف بالاتصال بالسفارة الأمريكية.

لكننا حزمنا أمرنا في نهاية الأمر بتأييد الثورة عندما أعلن عن رحيل الملك وتنازله عن العرش ، وعن قانون جديد للإصلاح الزراعي ، واتخذ مؤتمرنا قرارا بهذا التأييد وأرسلت به برقية إلى الإذاعة المصرية حيث أذيع على الفور .

* * *

والآن أتحول إلى الفترة الثانية التي عشتها في لندن مدرسا بإحدى كليات الجامعة .

لقد وصلت إلى لندن لتسلم عملي بالجامعة في فبراير (أو مارس) ١٩٥٥ قادما من بيروت ، وكنت قد غادرت القاهرة في نوفمبر ١٩٥٤ (بعد فصلي من جامعة القاهرة) لتدريس مقرر في الإحصاء باللغة العربية في فرع معهد الإحصاء الدولي ببيروت لمدة ثلاثة شهور .

وقد قبلت القيام بهذا العمل في انتظار قرار اختياري أو اختيار غيري في وظيفة لندن ، ولحسن الحظ قررت الكلية اختياري وأرسلت لي خطابا على بيروت بذلك ، وكانت فترة بيروت هي الفترة التي كتبت فيها مقالاتي الثلاثة عن الرواية المصرية واتفقت فيها مع دار نشر بيروتية على نشر كتاب (في الثقافة المصرية) وهو الكتاب الذي احتوى على مقالاتي ومقالات الصديق محمود أمين العالم في النقد الأدبي ، وتكفل الصديق اللبناني محمد دكروب بالإشراف على إخراجه كما قام الشهيد حسين مروة بكتابة مقدمة ، وقد أثار هذا الكتاب في السنوات الأولى لصدوره ضجة كبيرة في أوساط الشباب.

المهم تفرغت في لندن لعملي العلمي من إعداد المحاضرات والتركيز على البحوث بحيث لم يكن عندي وقت للعمل السياسي ، وكنت أكتفي في ذلك بحضور الاجتماعات السياسية المهمة ، وبتوثيق علاقتي بحركة «تحرير المستعمرات» التي كانت بمثابة مظلة واسعة تحطم جميع أعوان اليسار المعادي للاستعمار بقيادة نائب عمالي يساري معروف فينر بروكواي ، وكان اهتمام هذه الهيئة الأساسي بالمستعمرات البريطانية في أفريقيا آنذاك مثل غانا وأوغندا ونيجيريا .. إلخ .

وعند انتهاء عملي بالكلية في أواخر يونيو ١٩٥٢ قررت الاستجمام أنا والعائلة (زوجتي وابنتي منى) في جزيرة من جزر المانش تدعى جيرنسي فيما أذكر ذهبنا لقضاء شهر يوليو هناك ، وتمتعنا بجمال الطبيعة ، وبجو الريف الذي افتقده دائما باعتباري قاهري قح ، مثلا أتذكر أن الخضرة والأبقار كانت تملأ مساحة الفضاء أمام الفندق الذي نزلنا فيه .

تأميم القناة

حتى جاء يوم في يوليو قضيناه بطوله خارج الفندق وعندما عدنا في المساء ونزلنا لتناول العشاء، كالعادة في قاعة الطعام فوجئنا بالحاضرين وكأن على رؤوسهم الطير. لكن صديقاً هندياً انحنى عليّ وقال بصوت خافت «ألم تسمع؟ لقد أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس». ولم أصدق في مبدأ الأمر وحسبته يهزل كالعادة، ولكن أكد الخبر وطلب مني أن أسمع B . B . C للتأكد.

وقضيت تلك الليلة دون نوم عملياً، أفكر ماذا أعمل في مثل هذا الوقت، هل أستقيل من عملي مثلاً وأتفرغ للدفاع عن تأميم القناة؟

وفي الصباح اتصلت بسكرتيرة حركة تحرير المستعمرات، وهي سيدة انجليزية تمتاز بالنشاط والعمل الجماهيري الواسع، وقالت لي: أين أنت؟ إننا نبحث عنك في كل مكان، لأننا في حاجة إلى مثقف مصري يشرح لأعضاء النقابات في الاجتماعات التي نعدها في المدن

المختلفة وجهة نظر مصر ، قلت : إنني سوف أعود إلى لندن بعد يومين .

وكانت هذه المكالمة الهاتفية حاسمة في اتخاذ قراري بالاستقالة من عملي منعا لإحراج كليتي من ناحية ، ولآخذ كامل حريتي في هذا النشاط الجديد ، وأبرقت إلى الصديق محمود العالم بقراري الاستقالة في اليوم نفسه الذي أرسلت فيه خطاب استقالتي لعميد الكلية .

نشاط مكثف دفاعاً عن القناة

وعدت إلى لندن ، وبدأت أسافر إلى مدن بريطانيا المختلفة وفق الجدول الذي وضعته «حركة تحرير المستعمرات» للحديث في اجتماعات النقابات العمالية .. في مانشستر ، وشفيلد ، وأدنبره ، وليفربول ، وبرمنجهام .. إلخ ، وتصادف حضور اثنين من العاملين في الإذاعة المصرية هما عبد العزيز فهمي ويحيى أبو بكر فقاما بحضور بعض هذه الاجتماعات وتسجيل ما جرى فيها ، خصوصا الكلمات التي كنت ألقيها دفاعا عن التأميم وشرحا للمظالم التي حاقت بمصر عند بناء القناة .

والغريب في كل هذا النشاط أن السفارة المصرية في لندن لم تحاول أن تتصل بي لمساعدتي ، وأنا شخصيا لم أكن أعرف أحدا في السفارة ، وكنت أخشى من الاتصال بالسفارة باعتباري مفصولا من جامعة القاهرة بقرار لمجلس قيادة الثورة ، أي أن السفارة سوف تعتبرني - إن اتصلت بأحد فيها - معاديا للنظام في القاهرة .

وقد تبينت صحة هذه المخاوف عندما فوجئت وأنا في قمة نشاطي هذا للدفاع عن تأميم القناة باتصال هاتفي من الملحق العسكري في السفارة المصرية يرجوني أن أمر عليه في مكتبه .

كان آنذاك قد تحدد الاجتماع الجماهيري الكبير للبريطانيين في ميدان الطرف الأغر أواخر أكتوبر ، وكان قد أعلن عن المتكلمين في هذا الاجتماع وكنت منهم فإذا بالملحق العسكري يطلب مني أن أعتذر عن الاشتراك في هذا الاجتماع الكبير ! وفيما يبدو خوفا من أن أهاجم النظام في مصر ، ولكني رفضت طلبه وقلت له : إن الاجتماع الذي

سوف يبدأ بمظاهرات من ماربل ارش غدا تنتهى عند الطرف الأغر ، ويضم خمسين الفا من البريطانيين ، فرصة ذهبية للدفاع عن تأميم القناة فكيف يمكن أن أعتذر عنه !

اجتماع الطرف الأغر

وبالفعل حدث الاجتماع الذى تكلم فيه نواب حزب العمال فى ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ كما تكلمت فيه وكان حزب العمال معارضا للحرب ، والغريب أننى بعد عودتى إلى القاهرة فى أوائل ديسمبر ١٩٥٥ فوجئت بشخص يسلم على بحرارة فى مترو مصر الجديدة وهو فى ملابس مدنية ، ولم أعرف فى مبدأ الأمر من هو وسألنى . ألا تتذكرنى ؟ فقلت : أسف مش واخد بالى .

وإذ به الملحق العسكرى الذى كان يطلب منى ألا أتحدث فى اجتماع الطرف الأغر ، وإذ به يعتذر عن طلبه هذا ويقول إنها كانت تعليمات من القاهرة وأنه أدرك خطأها بعد ذلك .

ولقد كان الدكتور مصطفى كمال حلمى - رئيس مجلس الشورى اليوم - من حضور هذا الاجتماع الجماهيرى وقد

سعى إلى مهنتنا بعد سماع كلمتي ، وطبعا فإن صداقتنا قديمة لأننا خريجو كلية العلوم .

ومن المفارقات المثيرة للضحك أن إحدى الصحف البريطانية وأظنها «الديلي تلجراف» كتبت بعد اجتماع الطرف الأغر مقالا ادعت فيه أن عبد الناصر أرسل واحدا من مساعديه الإعلاميين للتحدث في الاجتماع ، وربما كان المقصود الأستاذ محمود أنيس الذى كان يعمل في مصلحة الاستعلامات .

ثم أدركت الصحيفة خطأها واتصل بي أحد محرريها تليفونيا وتأكد أنني مدرس بلندن فكتب اعتذارا بعد ذلك عن هذا الخطأ .

وقررت العودة إلى مصر أنا وأسرتي ، خصوصا أن الأجهزة البريطانية بدأت تطاردني وتسأل عني أصحاب المنازل التي أقمت بها ، ولكن كيف الذهاب إلى مصر ، ومطار القاهرة مغلق بسبب الحرب ، ولا يوجد طيران مدني بين مصر وبريطانيا ؟

لا مفر إذن من الذهاب جوا إلى الخرطوم ومن هناك نتدبر الامر إلى القاهرة .

وبالفعل وصلنا إلى الخرطوم وبقينا فيها مع عدد من الأصدقاء والأقارب حتى جاءت أول طائرة مصرية أخذتنا إلى القاهرة في أوائل ديسمبر ١٩٥٦.

ذكريات المساء

ليس هذا عنوانا رومانسيا ، وانما أشير هنا إلى ذكرياتي في صحيفة «المساء» المصرية عندما عدت من بريطانيا أثر العدوان الثلاثي على مصر في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بعد أن استقلت من عملي في لندن ، اتصل بي الاستاذ خالد محيي الدين عارضا على أن أعمل معه في صحيفة المساء ، فقبلت لأنه لم يكن أمامي من عمل آخر .

ولابد أنه في تخميني قد استأذن عبدالناصر قبل أن يتصل بي وأن عبدالناصر وافق على ذلك ، واخترت أن أهتم بالشئون العربية في صحيفة المساء .

كانت تلك الفترة من تاريخ مصر ، مشرقة ومليئة بالآمال . لقد هزم العدوان الثلاثي واضطرت القوات الاسرائيلية إلى الإنسحاب من سيناء ومن قطاع غزة بعد أن دمرت خط السكة الحديد الذي يربط مصر بغزة ، كما انسحبت القوات البريطانية والفرنسية من منطقة القنال . ولاشك في أن الولايات المتحدة قد ضغطت على حلفاء العدوان الثلاثي

للانسحاب بالاضافة إلى تهديد خروشوف بالتدخل العسكرى إن لم يتم الانسحاب .

وكان موقف الولايات المتحدة هذا - وايزنهاور بالذات - يعود إلى أن بريطانيا وفرنسا اخفتا عن واشنطن تفاصيل مشروع العدوان الذى تم التوقيع عليه سرا فى معاهدة «سيفر» . ولم يغفر إيزنهاور لإيدن هذا العمل وكان التهديد بزعزعة الجنيه الاسترلينى فى الأسواق الدولية كافيا ، لا للانسحاب فحسب بل لإخراج إيدن من زعامة حزب المحافظين بعد ذلك . وبالطبع كانت أمام أمريكا فرصة ذهبية لكى تحل مكان القوى الاستعمارية الهرمة (بريطانيا وفرنسا) فى الشرق الأوسط ، وهكذا بدأ تقديم «مشروع ايزنهاور» لملء الفراغ فى المنطقة كما يزعمون ، بعد الانسحاب مباشرة .

وبالطبع كان عبدالناصر يدرك أهداف مشروع ايزنهاور ، لكنه فى ظنى كان فى حرج للدور الذي لعبته أمريكا فى

تحقيق الانسحاب . ولذلك آثر أن تبدأ الحملة على مشروع إيزنهاور في صورة خطابات من الرأي العام إلى جريدة الشعب (وكان الاستاذ لطفي واكد رئيسا لتحريرها آنذاك) تدين المشروع . وبالطبع كانت جريدة المساء ضد المشروع وكتبت فيها مقالات عديدة تدينه وتفضح مراميه . لكن هذا لم يكن كافيا إذ أراد هو أن تعرف واشنطن أن الشعب كله ضد المشروع .

وهكذا اتصل بي الاستاذ لطفي واكد ذات صباح وطلب أن أزوره في مكتبه بصحيفة الشعب . فلما ذهبت وجدت على صبري حاضرا الجلسة ولو أنه انصرف قبل انتهاء اللقاء . وقال لي لطفي واكد : إنه يريد من قوى اليسار أن تغرق جريدة الشعب بخطابات ضد مشروع إيزنهاور وأنه يطلب مني المعونة في هذا . وبالفعل اتصلت بالعديد من قوى اليسار راجيا منهم إرسال خطابات إلى جريدة الشعب بإدانة مشروع إيزنهاور . ونشرت الجريدة بالفعل العديد من الخطابات الأمر الذي لعب دورا في قتل المشروع في المهد .

انتصارات الحركة الوطنية العربية

وبالطبع لم تسكت واشنطن - خصوصا بعد أن تعددت انتصارات الحركة الوطنية العربية ، فطرد الجنرال جلوب من الأردن وحل محله علي أبو نوار كقائد للجيش وتحركت الأحزاب الوطنية في الأردن لتحقيق حكم وطني برئاسة سليمان النابلسي حيث كان الكثير من زعماء الأحزاب الوطنية وزراء في تلك الحكومة ومنهم على سبيل المثال شفيق أرشيدات للتعليم وعبدالحليم النمر للداخلية .... إلخ .

على أن هذا التحول في الأردن لم يظل طويلا إذ جرى انقلاب وزاري آخر وإن لم يكن انقلابا كاملا ، إذ ظل سليمان النابلسي وزيرا للخارجية بعد أن كان رئيسا للوزراء وظل عدد من وزرائه في مواقعهم ، بينما تولى الرئاسة أحد الموالين للملك حسين .

كانت هذه بداية التهديد التركي بغزو سوريا من الشمال ، وكان التهديد جديا ولعبت الأحزاب المعادية للقومية العربية دورا في اهتزاز الأوضاع في سوريا باغتيال العقيد عدنان

المالكي الذي كان يشغل منصبا حساسا في الجيش السوري فيما أتذكر . كل هذا كان في سبتمبر سنه ١٩٥٧ .

واختار عبدالناصر أن يرسل وحدات من الجيش المصري إلى اللاذقية واستقبلت تلك القوات استقبالا يفوق الوصف في سوريا . وكانت هذه هي الظروف التي سافرت فيها إلي سوريا موفدا من صحيفة المساء .

ومع أهمية البحث عن الوضع في سوريا بعد وصول القوات المصرية ، إلا أنني أدركت أهمية زيارة عمان أيضا حيث كان الصراع على أشده بين الأحزاب الوطنية في الأردن ورجال الملك حسين . وهكذا سافرت إلي عمان لقضاء ثلاثة أيام فقط ونزلنا في فندق نادي عمان وكان يقيم به عدد من الوزراء الأردنيين الذين يعيشون أصلا خارج العاصمة ، وهكذا توثقت صلتي بعدد منهم من بينهم شفيق أرشيدات وعبدالحليم النابلسي وسعيت لمقابلة سليمان النابلسي وفهم الأوضاع منه فوجدت منه عتابا على عبدالناصر لأنه يشتد في رأيه في معاملة الملك حسين . لكن الجو كان مكهربا خصوصا

أن الأحزاب الوطنية قد قررت عقد مؤتمرها في نابلس وكان الملك حسين مصمما على إفشال المؤتمر ومنع المقيمين من أعضائه في عمان من السفر إلى نابلس ، إذ أنه حاصر مخارج عمان بقوات الشرطة .

وفي هذه الظروف حدث أغرب ما يمكن أن يحدث لصحفي خالي الذهن عن العمليات السرية . فقد اتصل بي الملحق العسكري المصري في الفندق وطلب مني أن أمر عليه في مكتبه فلما ذهبت إذ به يطلب مني أن أسافر إلى نابلس فورا ومعي اثنان من قيادة الحركة الوطنية في سيارة من سيارات السفارة . ولما سألته كيف ستسمح الشرطة الأردنية بخروجنا من عمان أجاب ببساطة : لا تحمل هم ذلك ، وطلبت منه أن أعود إلى الفندق لاحضار بعض الملابس معي إلى نابلس ، ولكنه رفض ثم سألني فجأة : هل تجيد إطلاق الرصاص ؟ فضحكت وقلت له إنني لم أمسك مسدسا طوال حياتي ، فقال : إذن يذهب معك فاروق القاضي لأنه يجيد إطلاق النار .

السفر إلى نابلس

وهكذا سافرنا في ظلام الليل إلى القدس ومعنا اثنان من قادة الأحزاب . فائق وراد الذي أصبح أمينا عاما للحزب الشيوعي الأردني بعد وفاة فؤاد نصار ، والآخر هو عيسى مدانات أحد قيادات الحزب ، وفي ظلام الليل لم أعرف من ركب معنا السيارة أنا وفاروق القاضي ، ولكن خطر في بالي أنهما رجلان في ملابس شبه نسائية ، وبالفعل عندما وصلت السيارة إلى نقطة التفتيش في مخارج عمان أبرزنا للشرطي جواز سفري وجواز سفر فاروق القاضي فأشار إلينا بالذهاب، ولم أصدق أننا بهذه السهولة اخترقنا نقاط حصار الملك حسين ، وكان المطلوب منا هو توصيل الرجلين إلى منزل القنصل المصري في القدس ، ووصلنا بالفعل إلى منزله حوالي الساعة الثالثة صباحا فوجدناه في انتظارنا ورحب بنا غاية الترحيب ونمنا بضع ساعات في غرفة الجلوس ، ثم قمت أنا وفاروق القاضي بالسفر وحدنا إلى نابلس مارين برام الله حيث استرحنا في منزل كمال ناصر (الذي اغتاله

الاسرائيليون في بيروت بعد ذلك بسنين طويلة) وتناولنا الغداء في منزله ثم ودعناه إلى نابلس التي وصلناها في المساء ، ووجدت أن المنظمين للمؤتمر قد رتبوا لي النزول في منزل قدري طوقان ، فاتجهت من فوري إلى قاعة المؤتمر في نابلس حيث حضرت جلسته الختامية ، وقابلت د. عبدالرحمن شقير زعيم الجبهة الوطنية آنذاك وفؤاد نصار أمين عام الحزب الشيوعي الأردني وفهمي السلفيتي وبقية قيادة الاحزاب الأردنية . وربما يتيح لي الزمن أن أتحدث عن متعة الإقامة في بيت طوقان والاحاديث الجميلة التي دارت بيني وبين قدري طوقان والشاعرة فدوى طوقان وحافظ طوقان ، وكيف ظللنا نتحاور في الأمور المختلفة حتى الصباح تقريبا .

وكان من الواضح لي أن الملك حسين يستعد لضربة ردا على قرارات الاحزاب الوطنية ، وبالفعل فلم أكد أعود إلى عمان وأنزل في نادي عمان حتى أعلن الملك حسين الأحكام العرفية وغير الوزارة بوزارة من الموالين له ، ومنع الخروج من نادي عمان بالأمر العسكري .. وبذلت السفارة المصرية

جهودها للتصريح لي بمغادرة عمان . وبالفعل غادرت عمان إلى دمشق . لكن عبدالرحمن الخميسي كان قد طير خبرا لجريدة الجمهورية باعتقالي في عمان . ولم يكن الخبر بالطبع صحيحا ، وعندما وصلت إلى دمشق وعلمت بالموضوع وسألت الخميسي لماذا فعلت هذا ؟ أجاب وهو يضحك : من باب الاحتياط ! .

التهديد التركي لسوريا

عندما وصلت إلى دمشق كانت أزمة التهديد التركي لسوريا في أشدها ، وكانت القوات المصرية قد أخذت مواقعها فرأيت أن من المناسب أن أزور عددا من المدن السورية لاستكشاف الاستعدادات لمواجهة الغزو التركي المحتمل . وبالفعل ذهبت إلى المكتب الثاني (المخابرات) وقابلت عبدالحميد السراج (رئيسه آنذاك) وطلبت منه ترتيب التصريح لي بزيارة عدد من المواقع .. في حمص واللاذقية وحلب .. إلخ .

فرحب بذلك وأصدر لي تصريحا بزيارة هذه الاماكن ومقابلة قادتها . وعندما علم بعض الصحفيين المصريين في دمشق بذلك أبدوا رغبتهم في أن يكونوا معي . كان معنا في السيارة حسن شاه الهاكع وأحمد سعيد مراسل وكالة الشرق الأوسط في دمشق وصحفية ثالثة من أخبار اليوم هي فاطمة سعيد . وبالفعل غادرنا دمشق في الفجر في سيارة مكتوب على زجاجها الأمامي (صحافة مصرية) .

ومهما حاولت أن أصف حفاوة الشعب السوري بنا فلن أستطيع ، سوف أذكر قصة واحدة تشير إلى ذلك . عندما وصلنا إلي الميدان الرئيسي في حمص أوقفنا بعض الأهالي وصمموا على أن ننزل لتناول الافطار في منزل أحدهم : فلما أخبرناهم أننا تناولنا بعض الافطار في السيارة ونحن في الطريق وشكرناهم على كرمهم رفضوا الاستماع إلينا وحلف أحدهم بالطلاق أنه لابد من أن نتناول الافطار في منزله وبالطبع رضخنا لهذا الكرم الحاتمي وأفطرنا مرة أخرى .

ثم ذهبنا بالسيارة إلى موقع القيادة حيث قابلنا الضباط السوريين والمصريين الذين رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى مكتب محافظ حمص حيث واجهنا أعظم مفاجأة !

كان الزملاء المصريين معي قد اتفقوا على أن أتولى - باعتباري أكبرهم سنا - تقديمهم إلى الجهات المختلفة التي نزورها . وقد قمت بهذا عند وصولنا لمكتب المحافظ . فوجدت منه حفاوة شديدة بأحمد سعيد الذي معنا ظنا منه أنه أحمد سعيد المشرف على صوت العرب ، وأدركت بسرعة المشكلة وحاولت أن أشرح بهدوء للمحافظ أن الصحفي الذي معنا ليس أحمد سعيد صوت العرب . فإذ به ينفعل ويقول إن ما وصله من المكتب الثاني من أسماء لصحفيين مصريين من بينهم أحمد سعيد جعله يدعو شعب حمص للاجتماع في الميدان الكبير بعد الظهر للاستماع إلى خطاب من أحمد سعيد صوت العرب .

وبالفعل كانت الميكروفونات الثابتة والمتنقلة في سيارات تدعو إلى اجتماع بعد الظهر لسماع أحمد سعيد . وأدركنا أننا في ورطة ! ماذا نفعل ؟

حاولت أن أقنع أحمد سعيد الذي معنا في الوفد أن يتكلم فرفض بإصرار وهدد بالعودة إلى دمشق فورا . قلت له : سوف أكتب لك الخطبة وما عليك إلا قراءتها فرفض . إنه شاب خجول لا يجيد الخطابة أمام الناس (وهو بالمناسبة أصبح وكيل التليفزيون المصري بعد ذلك بسنين طويلة) .

وبالتالي فلم يكن هناك مفر من أن أتكلم أنا . وأنا طبعا لست أحمد سعيد . ووقفنا في شرفة المحافظة .. ممثلو الاحزاب الوطنية السورية ورجال الدين مسلمين ومسيحيين وبعض الضباط والصحفيين المصريين . وتكلم رجال سوريا أولا ثم عندما جاء الدور علينا لم تستمع الجماهير إلى اســم الشــخص الذي ســوف يتحدث لأن إطــلاق النار من الأهالي ترحيبا قد غطى على كل شئ .

وبعد انتهاء الاحتفال نزلنا إلى السيارة لقافلة حمص إلى اللاذقية فأصرت الجماهير السورية على إخراجي من السيارة للترحيب بي وتقبيلي ، وبعضهم لاشك قد أدرك أني لست أحمد سعيد . وإن كانت كلمتي قد سرتهم .

وقد اكتشفت بعد ذلك أن أهل حمص معروفون في الشام بطيبتهم وسذاجتهم تماما كما نتحدث نحن عن أهل الشرقية الذين عزموا القطار أو من الصعيدي الذي اشترى الترام .
عرفت ذلك من عفيف البرزي قائد الجيش السوري آنذاك ، وعندما أخذني بعد ذلك في سيارته أنا وخالد محيي الدين لزيارة حمص مرة أخرى ألفيناه يضحك مع المحافظ ويعيد قصة أهل حمص مرة أخرى .

بعد وصولنا إلى اللاذقية كنت متلهفا للوصول إلى حلب إذ كان واضحا لي أن أولى معارك الجيش التركي - لو قرر الهجوم فعلا - سوف تكون في حلب .

وفي حلب وجدت الاستعدادات العسكرية تجري على قدم وساق .. حفر خنادق وإقامة استحكامات ، وكانت قلعة حلب هي ، المكان الذي تطل منه على ما يجري في المدينة .

الغريب أنني وجدت من بين الضباط المصريين الذين كانوا يقومون بتدريب الميليشيات على أعمال المقاومة الضابط حسن صبري الخولي (الذي أصبح فيما بعد المبعوث

الشخصي للرئيس عبدالناصر في أعمال سياسية عربية كثيرة) .

وكنت أعرف حسن صبري الخولي من العباسية حيث نشأنا سويا وظللت على علاقة به بعد الثورة ، لذا فرحت جدا بلقائه ، وقد دبر - ترحيبا بنا - زيارة للحدود السورية التركية عبر الجبال الشاهقة والطرق الضيقة .

* * *

بقي أن أذكر أنني كنت أول صحفي مصري يزور قطاع غزة بعد جلاء الإسرائيليين عنها وعودة الإدارة المصرية (أعتقد أن ذلك تم في يناير سنة ١٩٥٧) ، حيث أن الاسرائيليين دمروا خط السكة الحديد الذي كان يصل بين غزة والقنطرة شرق فلم يكن هناك مفر من تأجير تاكسي في القنطرة شرق يأخذني إلى غزة ، وكان في السيارة أناس آخرون ذاهبون إلى هناك وقبل وصولنا إلى غزة بنحو ربع الساعة فوجئنا برتل من السيارات يسد الطريق تماما . وعندما وصلنا إلى السد أدخل أحد الواقفين رأسه في

سيارتنا وسأل عني وعرفت بعد ذلك أنهم يمثلون وفدا من شباب غزة عرفوا لا أدري كيف أني قادم إلى غزة وأنهم خرجوا للترحيب بي ، وقضيت أسبوعا في غزة نزلت خلاله في منزل جمال الصوراني وقابلت قيادات غزة الوطنية : حيدر عبدالشافي وجمال الصوراني ومعين بسيسو والبقية ، وكنت أتناول الغداء يوميا في أحد منازل أهل غزة ، وكان الغداء التقليدي هو المنسف والكنافة النابلسية .

والمنسف هو طبق كبير من الأرز والعيش واللحم ، يأكلونه بأيدهم على طريقة الاعراب ، أما الكنافة النابلسية فهي من أجمل ما ذقت من الحلويات .

ومن نتائج هذه الزيارة أني كتبت مقدمة ديوان معين بسيسو «مارد من السنابل» عن المقاومة التي نظمت ضد الاحتلال الاسرائيلي آنذاك وحتى اليوم لايزال الكثيرون من رجال غزة يزورونني في القاهرة ونتذكر سويا أيام هذه الزيارة الجميلة التي أوقدت حبي لأهل غزة ونضالها.

انتخابات الدائرة السادسة

اتجهت الثورة إلى إجراءات انتخابية لأول مرة بعد انتهاء العدوان الثلاثي وهزيمة أهدافه . وتحدد شهر يوليو سنة ١٩٥٧ موعدا لإجراء الانتخابات . وبالطبع لم تكن هناك أحزاب رسمية تتقدم لدخول هذه الانتخابات ، وإنما يتقدم الأفراد الراغبون في دخولها إلى لجنة يرأسها عبدالناصر وتضم في عضويتها عبدالحكيم عامر وزكريا محيي الدين وكمال الدين حسين فيما أذكر .

ولقد تقدم إلي هذه اللجنة عدد من اليساريين المعروفين طالبين الترشيح فرفضتهم ، وتقدمت أنا بطلبي إلى اللجنة ، فوافقت اللجنة علي ترشيحي لمجلس النواب . وكان سبب الموافقة فيما أعتقد هو موقفي في بريطانيا عند تأميم القناة ، مدافعا عن التأميم في اجتماعات بريطانية مختلفة كان آخرها الاجتماع الحاشد في ميدان الطرف الأغر في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

وقد اخترت أن أتقدم للدائرة السادسة (الوايلي) لأن أهلي جميعا من عائلة الأب أو الأم يقيمون في العباسية طوال

حياتهم ، وقد نشأت في العباسية وتعلمت في مدارسها ، حتى كلية العلوم التي التحقت بها جامعيا كانت في العباسية آنذاك .

وتحمست لترشيحي كل فصائل اليسار في مصر باستثناء جماعة «حدتو» التي اختارت أن تؤيد في هذه الدائرة عاملا من عمال الترام (عبدالعزيز مصطفى) وقيل حينذاك أنهم قرروا تأييده لأنه عضو في تنظيمهم ، بينما قال الشيخ مبارك بعد ذلك بسنوات طويلة في ذكرياته أنهم أيدوا عبدالعزيز مصطفى لأنه عامل ، أي أنهم فضلوا العامل على المثقف وهي حجة سخيفة أمام أي فكر يساري عاقل .

ولقد بلغ حماس المثقفين لترشيحي أن وقع عدد من كبار المثقفين بيانا يعلنون فيه تأييدي ويدعون الناس في الدائرة السادسة إلى الوقوف معي ، ومن هؤلاء أتذكر أسماء إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير روزاليوسف وكامل الشناوي رئيس تحرير الجمهورية وأحمد بهاء الدين الكاتب المعروف والدكتور لويس عوض ، ومع أنني لم أسع للحصول على توقيع نجيب

محفوظ إلا أنني عندما كنت أزور بعض المنازل في منطقة «بين الجناين» حيث كان يسكن هو آنذاك أفاجأ بمن يخبرني من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابي . وبالطبع كان لمثل هذا الخبر تأثير عظيم في قلبي وتقدير أعظم في نفسي ، مع أنني حتى ذلك الوقت لم نكن على صلة قريبة من الناحية الشخصية وإن كان قد أهداني ثلاثيته عندما صدرت .

وتحمس أيضا لترشيحي الطلاب العرب في الجامعات المصرية من فلسطينيين وأردنيين وسوريين ولبنانيين ويمنيين حتى أن اجتماعاتي الانتخابية لم تكن تخلو في يوم من الأيام من حضورهم ومناقشاتهم ، مما خلق جوا عربيا احتفاليا في الدائرة السادسة .

موقف مضاد

وقد أصبح من الواضح لي بعد أيام من النشاط الجماهيري في الدائرة أن هناك قوى في الدولة تقف ضد انتخابي ، اتضح هذا من مضايقات البوليس لي ورفض

التصريح بعقد الاجتماعات أو اشتراط عدم استعمال الميكروفونات ، حتى عندما بدأ زملائي في جريدة المساء في التبرع المالي لمساعدتي اتصل أحد المسئولين بخالد محيي الدين رئيس التحرير طالبا التوقف عن ذلك .

وعندما نظمت اجتماعا جماهيريا واسعا في ميدان الوايلي قرب يوم الانتخابات أخذ بعض رجال الحكومة وزملاء من حينتوه الذين كانوا يناصرون عبدالعزيز مصطفى يتصلون بالناس هاتفيا أو بالمقابلة يثنونهم عن حضور المؤتمر بحجة أن بعض الأشرار سوف يلقون ماء نار على وجوه من يحضرون ، ومع ذلك فقد حضر الكثيرون وكان يجلس معي على المنصة أحمد بهاء الدين ، ولويس عوض ود. عبدالمجيد أبو حجلة (من قيادات الأردن آنذاك) وآخرون لا أتذكرهم ، وامتلأ السرادق بالآلاف من أهل الدائرة والزائرين . وابتدأ الاجتماع بكلمة جامعة مني ومن الآخرين . فلما أدرك البوليس أن مساعيهم باءت بالفشل هجموا بالقوة على السرادق وأمعنوا في ضرب الناس لإخراجهم من السرادق ،

بل لقد حاولوا الوصول إلى بهدف الاعتداء أيضا لولا أن عددا من الزملاء أحاطوا بى وأخرجونى سالما من باب خلفى ، ولا أنسى فى هذا الصدد الدور الكبير الذى لعبته الفنانة العظيمة محسنة توفيق التى كانت آنذاك طالبة فى الثانوية العامة شديدة الحماس الانتخابى .

وقد تبين يوم الانتخاب أننى حصلت - رغم كل ماحدث - على أعلى أصوات ضمن تسعة كانوا مرشحين فى تلك الدائرة ، منهم الممثل سراج منير ، لقد حصلت على أكثر من خمسة آلاف صوت ويليني بعد ذلك عبدالعزيز مصطفى الذى حصل على ألفى صوت .

وحيث أن عدد الأصوات فى الدائرة كان حوالى ١٢ ألف صوت ، فقد كان لابد من الإعادة بينى وبين عبدالعزيز مصطفى .

ولما كانت وزارة الداخلية تعلم أن غالبية أهل الدائرة يؤيدوننى، فقد لجأت إلى استبدال صناديق الانتخاب بصناديق أخرى أدخلت إلى قسم الوايلى فى المساء باعتبارها أنها الصناديق الحقيقية .

وكنت قد اتفقت مع بعض أنصاري على مراقبة القسم ليلا خوفا من حدوث هذا وكانت النتيجة أن قبض عليهم وضربوا ضربا مبرحا ومنهم رشدى خليل رحمه الله .

وأعتقد أن أكبر خطأ وقعت فيه أنني لم أتمم على الصناديق كما يفعل بعض المرشحين ، خصوصا أن بعض أنصاري طردوا من اللجان الفرعية خلال الانتخابات .

ومن المصادفات الغريبة أنني بعد هذه الأحداث بسنوات عدة وكنت معتقلا آنذاك بسجن الواحات ، قابلت بالصدفة رجلا كان مشتركا فى عملية تبديل الصناديق وحكى لي تفاصيل القصة وقال لي : إنه كان آسفا على ذلك ولكنها كانت تعليمات لابد من تنفيذها .

لقد كنت ذاهبا من سجن الواحات إلى مستشفى بأسيوط للعلاج ، وحضرت سيارة بها ضابط ومخبر وسائق طبعا ، وكان الضابط يجلس إلى جانب السائق بينما جلست أنا والمخبر فى السيارة البوكس في الخلف وفي الطريق بدأت الدردشة العادية مع المخبر إلى أن سألني إن كنت أذكره .

قلت : لا أبدا ، فضحك وقال : إنه كان في قسم الوايلي عام ١٩٥٧ وحكى لي قصة الصناديق التي استبدلت في الدائرة السادسة لإسقاطي وإنجاح عبدالعزيز مصطفى .

أتذكر أنه في اليوم الذي هجم فيه البوليس على الاجتماع الجماهيري قبل الانتخابات بأيام قليلة ذهبت بعد الحادث إلى جريدة الجمهورية وقابلت كامل الشناوي - (وكان صديقا حميما لي وواحدا من أنصاري) وحكيت له ما حدث . وبينما نحن نتحدث في الموضوع دخل إلى الغرفة أنور السادات (وكان آنذاك رئيس مجلس إدارة الجمهورية) وطلب مني كامل الشناوي أن أعيد القصة أمام أنور السادات ففعلت ، فقال أنور السادات بعد برهة : أكتب تقريرا بما حدث وسأرفعه إلى الرئيس جمال عبدالناصر وأعطاني كامل الشناوي بعض الأوراق فأخذت في كتابة القصة كاملة وأنا في حالة انفعال كامل .

ولا أدري حتى اليوم إن كان ما كتبته قد وصل عبدالناصر حقا ! وكل ما أعرفه ما حكاه خالد محيي الدين لي بعد ذلك

عند لقائه بعبد الناصر من أنه عاتبه على الأقوال السائرة آنذاك بتزوير انتخابات الدائرة السادسة ، لكن خالد محيي الدين تمسك بصحة هذه الأقوال وقدم لعبدالناصر أمثلة على هذا التزوير . فمثلا في إحدى الشياخات القرمية كان هناك من أقاربي حوالي ١٢ شخصا ذهبوا جميعا لانتخابي في الاعادة بينما النتائج في هذه الشياخة تقول أني حصلت على ٤ أصوات فقط ! .

المهم أن هذه الانتخابات وما حدث فيها قد خلقت جوا من الريبة بيني وبين عبدالناصر ، حتى أنه أخذ يستمع لبعض القيادات البعثية ، وخصوصا ميشيل عفلق الذي لم يكن يحبني وكنت أبادله نفس المشاعر .

وحدث أن كتبت مقالا في صحيفة المساء استخدمت فيه تعبير (الحركة الوطنية العربية) فإذا بميشيل عفلق يقنع عبدالناصر أنني معاد للقومية العربية ، واتصل عبدالناصر بخالد محيي الدين مهددا باعتقالي . وقد دافع خالد عني

نقاشا مجيدا . وكنت بالمصادفة في غرفته عندما حدث اتصال عبدالناصر به . وفي النهاية أمر أن أتوقف عن الكتابة .

واتفق خالد معي على أن أستمر في الكتابة دون توقيع ، لكنت أكتب المقال بتوقيع «مراقب» ، ومن يعود إلى صحيفة المساء عام ١٩٥٨ سوف يرى العديد من المقالات بهذا التوقيع.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى حملة أول يناير سنة ١٩٥٩ الشهيرة التي تم فيها اعتقال المئات من اليساريين وكنت منهم ، وعندما فتشوا منزلي لم يجدوا فيه غير بيان كنا نجمع عليه التوقيعات يطالب الرئيس عبدالناصر بالديمقراطية السياسية .

موقف من المرحلة الناصرية

قال صديقي وزميلي في جامعة عين شمس في يوم من أيام عام ١٩٨٤ ، وكان يداوم على قراءة مقالاتي في صحيفة «الأهالي» بشكل منتظم :

«إنك تحيرني بدفاعك المجيد عن المرحلة الناصرية وعن عبدالناصر في مقالاتك بصحيفة الأهالي على أنني أعرف من ملازمتي لك طوال هذه السنين منذ عينا نحن الاثنين معيدين بالجامعة حتى اليوم انك لم تلق عنتا في حياتك مثل ما لقيته خلال المرحلة الناصرية فأنت فصلت من جامعة القاهرة عام ١٩٥٤ بقرار من مجلس قيادة الثورة وأنت اعتقلت ضمن مئات آخرين من الشيوعيين اليساريين في أول يناير ١٩٥٩ حتى ابريل ١٩٦٤ .

ولاقيت مع زملائك خلال الاعتقال مالقيتموه من عنت وتعذيب مسجل في كتابك «رسائل الحب والحزن والثورة» وقدمت أنت وستون من رفاقك للمحاكمة أمام مجلس عسكري بالاسكندرية في نوفمبر ١٩٥٩ ، ومع أن هذا المجلس العسكري أصدر حكما ببراءتك أنت وصديقك محمود أمين

العالم إلا إنكما بقيتما فى معتقل الواحات الخارجة إلى أن الفرج عن الجميع فى ابريل ١٩٦٤ ومع ذلك فلم أقرأ دفاعا مجيدا عن عبد الناصر ومرحلته كما قرأته في مقالاتك بصحيفة الأهالى فهل تسمح لي بتفسير هذه الفزورة ؟!.

قلت :

ليس فى الأمر فزورة ولا يحزنون فمعيارى في الحكم على المرحلة الناصرية لم يقم أساسا بما حدث لى شخصيا ، وانما بما حدث لشعب مصر خلال تلك الفترة ، وأى شخص قادر على الحكم الموضوعي لابد أنه سيدرك أنه فى حساب المكاسب والخسائر ، الايجابيات والسلبيات فإن المرحلة الناصرية قد حققت للشعب المصرى الكثير من المكاسب المهمة التى كنا نطالب ببعضها قبل الثورة .. الاصلاح الزراعى ، القطاع العام ، وبناء الصناعة الوطنية على نطاق واسع لأول مرة ، إنهاء الاحتلال البريطانى ، تأميم قناة السويس ، التوسع فى مجانية التعليم فى مراحله المختلفة ، تحسين صحة الشعب ومستوى معيشته مقارنة بما قبل

الثورة، بناء السد العالي ، وقوف مصر الدولة إلى جانب نضال الشعوب العربية في نضالها ضد السيطرة الأجنبية ودعم ثوراتها ، بل ودعم ثورات أفريقية .. إلخ وربما إذا اردت تعداد كل الأعمال العظيمة التي صنعها عبدالناصر خلال حكمه أن أكتب مقالا كاملا عن هذا الموضوع .

شئ واحد وأساسي كان محل خلافي مع المرحلة الناصرية وقادتها .. هو غياب الديمقراطية السياسية الحقيقية .. فقد كنت ومازلت أعتقد أن تلك هي نقطة الضعف الأساسية في المرحلة الناصرية ، وهي التي غطت على السلبيات الأخرى التي وقعت آنذاك وكان هناك حرص على التستر عليها وهذه المسألة هي في رأيي المسئولة عن التستر على الفساد داخل الجيش آنذاك ، وهو الفساد في القيادات الذي اتضحت أبعاده عند وقوع كارثة سنة ١٩٦٧ ، وهي أيضا المسئولة عن هشاشة التنظيمات الشعبية التي بناها عبدالناصر وامتلأت مع الأسف بالعناصر

الانتــهــازية التي تلعب دورا مــهــمــا اليــوم في الردة التي صاحبت نظامي السادات ومبارك .

ولقد أخذت هذه القضية في نظري بعدا حيويا إثر إبرام الوحدة المصرية السورية في فبراير سنة ١٩٥٨ وعندما تم القــبض علي في أول يناير سنة ١٩٥٩ كــان من ضــمــن المضــبوطات بيــان كنا أعددناه عن قــضــيــة الديمقــراطيــة السياسية وأهميتها كدعاية أساسية للوحدة ، وكان من الموقعين على هذا البيان أنور عبدالملك وسعد التائه ومحمود العالم وكاتب هذه السطور وآخرون لا أذكر اليوم اسماءهم .. والغريب أنه خلال تحقيق النيابة معي وخلال المحاكمة أمام المجلس العسكري كان هناك حرص من الجانبين على تجنب السؤال عن هذا البيان ، بينما كنت أنا حريصا على الاشارة إليه في كل مناسبة .

هذا اذن الموقف على حقيقته ، أما دفاعي عن عبدالناصر وحكمــه فــقــد وقع في زمن الردة الشــاملة ، زمن نظامي

السادات ومبارك ، عندما سحبت بالتدريج كل المكاسب العديدة التي حققها شعب مصر خلال حكم عبدالناصر ، وعندما التحق كثيرون ممن كانوا في التنظيم الطليعي بركاب الردة وخيانة مصالح هذا الشعب من أجل الوجاهة والمال والسلطان .

أكتب هذه الكلمة لأقول : إن عهد عبدالناصر لم يخل من سلبيات معظمها هو ثمرة غياب ديمقراطية سياسية حقيقية ، ديمقراطية قادرة على تعبئة الجماهير في عملية ابداء الرأي واتخاذ القرار (وهذا بالمناسبة هو المطعن القاتل الذي دمر الانظمة الاشتراكية في روسيا وشرق أوروبا) . بل لقد وقعت جرائم في عهد عبدالناصر مثل إعدام خميس والبقري في كفر الدوار بعد محاكمة غير عادلة .

لكن الحكم العام على المرحلة الناصرية هو في رأيي إيجابي لأنه حقق للشعب العديد من المكاسب واكسب مصر احترام العالم. ومن المهم ابراز هذا الجانب الايجابي في زمن

الردة زمن سلب الشعب كل مكاسبه فى المرحلة الناصرية زمن الخضوع للأجنبى وبيع القطاع العام ، زمن «السلام» الزائف مع الصهاينة، ولأنه سلام إذعان ، فلا يمكن أن يكتب له الدوام !

الاستنارة والشجاعة

أحسست وأنا أمشي في جنازة الأديب الراحل احسان عبدالقدوس أنني أجر ورائي ذكريات ٥٠ عاما من الصبا والشباب والكهولة ، ذكريات جميلة حقا لكنها بنت وكأنها تختصر أحداث تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر .

كنت واحسان في مدرسة ثانوية واحدة هي مدرسة فؤاد الأول الثانوية (الحسينية الآن) بالعباسية ، وكنت في السنة الأولي بينما هو في السنة الخامسة . وكنا نضرب عن الدراسة ونتظاهر في شارع العباسية احتجاجا على تصريحات وزير خارجية بريطانيا «صمويل هور» .

كان احسان في مقدمة المظاهرة ، بينما كنت أنا في الثانية عشرة من عمري في المؤخرة ، وانتهت المظاهرة بالتصادم مع البوليس ونجا احسان ، بينما وقعت أنا في ايديهم وقضيت في حجز قسم شرطة الوايلي يوما واحدا حتى أفرج عني .

لم يكن احسان يعرفني شخصيا ، لكني فوجئت بعد ثـورة يوليو بعدة شـهور يذكرني ، وهـو يسـتقبلني في مكتبـه بروز اليوسف بتلك الواقعـة التي كان قد انقضى عليها ١٧ عاما .

ولقـد تميـز احسـان بخصلتين مـازلت أذكـرهمـا له ، وأحسـبـهمـا من أجـمل شمـائله على الرغم من الخلافـات السـيـاسية والأدبية التي فصلت بيننا ، وإن لم تؤثر على صداقتنا .. هاتان الخصلتان هما سعة أفقه وشجاعته .

بعد ثورة يوليو بأسابيع عدت من البعثة في بريطانيا ، وعينت مدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة ، وبدأت أكتب اسبوعيا بصفحة الأدب بصحيفة المصرى .

وأذكر أنني كتبت مقالا طويلا تعرضت فيه بالنقد الحاد لقصص إحسان وإذ ببعض الاصدقاء من العاملين معه يتصلون بي ، ويقولون إنه يريد أن يراني .

وبالفعل ذهبت إلى لقائه في مكتبه ، فإذا به يعرض على أن أكون من كتاب روزاليوسف

وبدأت بالكتابة فيها كل اسبوع ، ثم قمت بتحرير باب «أدب» بعد انتقال فتحي غانم لأخبار اليوم .

وظل هذا هو الوضع حتى نهايات عام ١٩٥٤ - عندما صدر قرار مجلس قيادة الثورة بفصلي من الجامعة ضمن آخرين ، وذلك بسبب موقف اليسار من الثورة وخلافها معها حول قضية الديمقراطية .

وعندما عرضت علي وظيفة مدرس بجامعة لندن قبلتها مضطرا لأنني عشت في القاهرة شهورا بلا عمل ، ومن لندن ظللت أرسل بعض المقالات الثقافية لاحسان فيقوم بنشرها رغم علمه أنني من المغضوب عليهم .

ثم تجلت شجاعته حقا في مقال نشره عني في روزاليوسف عام ١٩٥٥ بعنوان «الرجل الذي سرقه الانجليز» قال فيه أشياء طيبة كثيرة عني لا أستطيع ذكرها هنا ، ثم دعا في ختام المقال إلى إعادتي لمصر ، وإلى جامعة القاهرة .

بعد أيام من نشر المقال ، كان احسان في طريقه إلى باندونج في صحبة الزعيم جمال عبدالناصر فسأله عن المقال

وعني ، وقام احسان بشرح وجهة نظره في اسهاب - لكن عبدالناصر ختم الحديث بقوله: «إن الشيوعيين يضحكون عليك ويستخدمونك يا احسان» !

تذكرت هذه القصة وأنا أسير يوم الجمعة الماضي حزينا في جنازته ضمن ذكريات عديدة جمعتني بالصديق الراحل - فاذا بالدموع تنساب ولا أستطيع كتمانها .

شهادة للتاريخ

التقيت بها بالصدفة على مائدة العشاء عند بعض الأصدقاء في الاسبوع الماضي ، ولم تكن تعرف عني غير أنني أستاذ بالجامعة ، ولم أكن أعرف عنها غير أنها انجليزية مهتمة بقضايا التعليم وانها ليست بعيدة عن نشاط المجلس البريطاني الثقافي في القاهرة .

ولأن مكاني على المائدة جاء مجاورا لمكانها ، ولأن أدب الحوار يقتضي نوعا من الحديث والحوار فقد سألتها ان كانت مقيمة بمصر منذ مدة طويلة ؟ .. قالت : أربع سنوات . قلت : وهل تروق لك الحياة بمصر ؟ قالت : نعم باستثناء المتاعب المعروفة ، المواصلات ، الضوضاء ، المجارى .. إلخ لكني أحب هذا الشعب الكريم المضياف والصبور أيضا ..

ومضى الحديث على هذا النحو التقليدي حتى فاجأتني بسؤال أطار النعاس من عيوني والملل من نفسي .

قالت . قل لي بالله كيف تسمح انظمتكم التعليمية بدخول الحاصلين على الثانوية البريطانية والمستوى العادي، الجامعات المصرية مع أن هذه الشهادة في بلادنا لا

توصـل الحاصل عليها إلا للخـــروج من المدرسة الثانـوية إلى العمل ، وان الطالب في بريطانيا عليه أن يمضى عامين في الدراسة قبل أن تقبله الجامعة وكيف تقبل جامعاتكم طلبة لم يدرسوا لغتكم القوميـة ، اللغـة العربيـــة ، في السنتين الثانية والثالثة الثانوية . إن الوضع الذى أراه هنا هو أن أعدادا هائلة متزايدة كل عام من الطلبة المصريين بعد نجاحهم في امتحـــان السنة الأولى الثانوية في مدارسهم المصرية يتقدمون لامتحان ، المجلس البريطاني في الشهادة الثانوية البريطانية ، وهي لا تتضمن بالطبــع امتحانا في اللغة العربية ، ويحصلون عليها خلال عام وبعدها يدخلون جامعاتكم ، فكأنهم بذلك قد وفروا عاما كاملا من دراستهم ووفروا مشقة دراسة اللغة العربية سنتين كاملتين ، وجامعاتكم تقبلهم على ذلك ! هل يمكن أن تفسر لي هذا اللغز ؟ وكيف يتسق كل هذا مع مبدأ تكافؤ الفرص الذى تتحدثون عنه كثيرا ؟! .

قلت : هذا سؤال جدير بأن توجهيه إلى وزير التعليم فى مصر، وأمين المجلس الأعلى للجامعات ، ورؤساء الجامعات المصرية ، الذين قبلوا على أنفسهم هذا الوضع المهين لشهادة الثانوية المصرية ، والذين رضوا عن طيب خاطر بسياسة القفز من فوق القواعد الديمقراطية لدخول الجامعة مجاملة لبعض الفئات القادرة في مصر وصاحبة الصوت العالي ، ولقد فات عليك أن تذكري أن طالب الثانوية البريطانية المصري قد وفر على نفسه أيضا مشقة دراسة الرياضيات فى المناهج المصرية لمدة عامين ، لأنك ، كما لا شك تعرفين ، أن مناهج الرياضيات في الثانوية البريطانية أدنى كثيرا من مناهج مصر» ..

قالت : نعم أعلم ذلك ، وهذا أمر طبيعي لأن شهادتنا هذه لا تؤهل أحدا لدخول الجامعة ، ولو حاول أحد طلابكم ، من الحاصلين على الثانوية البريطانية ، التقدم إلى جامعة بريطانية لرفض طلبه طبعا ، وبالمناسبة لم أفهم ، أيضا ، كيف قبلت السيدة جيهان السادات أصلا كطالبة فى قسم

اللغة العربية ، في كلية الآداب ، مع انها لم تؤد امتحانها في مناهج اللغة العربية للمرحلة الثانوية ؟ ألم تتقدم إلى جامعة القاهرة بشهادة الثانوية البريطانية ؟»

قلت – وأنا ازداد خجلا – هذا سؤال جدير أن يوجه لرئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب ولعميد كلية الآداب ورئيس جامعة القاهرة آنذاك ؟

وسألتها عن عدد الطلاب المصريين المتقدمين هذا العام الثانوية البريطانية ، فقالت على الفور : لدى المجلس البريطاني موعدان للجلوس إلي هذا الامتحان – يناير ويونيه ، والعدد المتقدم من الطلاب المصريين في كل موعد يزيد على الألفين ! ، فكم يكون العدد بعد عدة سنوات ؟

* * *

ولأن العشاء انتهى بسرعة فقد حمدت الله على انصرافنا دون أن أضطر إلي اجابة السيدة الانجليزية على هذه الاسئلة المحرجة. لكنني فكرت وأنا عائد إلي منزلي أن هذه قضية جديرة أن تفتح على صفحات الصحف مرات

ومرات ، وأنه ، رغم أنه قد سبق لي أن أثرت الموضوع على صفحات «الأهالي» منذ عدة شهور ، فإنه من الضرورة إلقاء أضواء جديدة على الظروف التي ظهرت فيها هذه «الموضة» الجديدة التي يقبل عليها بأعداد متزايدة أبناء القادرين والأثرياء لدخول الجامعة من الباب الخلفي!

إنني أعتقد أن هذا الباب الخلفي قد فتح على مصراعيه في عام ١٩٧٤ عندما كان ابن رئيس الجمهورية السابق طالبا في الثانوية العامة . كنت آنذاك وكيل الصلة بوزارة التربية والتعليم ، فقد كنت رئيسا للجنة القومية لتعليم الرياضيات في التعليم العام، وكنت مستشارا للوزارة ومشرفا على تدريب المدرسين في الرياضيات المعاصرة ، وكنت أزور المدارس الثانوية التي طبقت المناهج الجديدة ، وأناقش نظار المدارس في توزيع جدول الرياضيات على المدرسين وفي اختيار المدرسين أنفسهم للتدريس في الفصول المختلفة ، وأحضر كثيرا من الحصص بنفسي .

ومن بين هذه المدارس التي كنت أزورها آنذاك مدرسة

بورسعيد بالزمالك ، حيث كان جمال السادات ، وكان معروفا بالمدرسة أنه يستحيل عليه أن ينجح في امتحان الثانوية العامة المصرية (القسم العلمي) ، فما بالك بالحصول على مجموع يدخله كلية مثل كلية الهندسة !

في هذا الوقت ، بدأت صحف الحكومة فجأة تتحدث عن صعوبة مناهج الثانوية العامة ، وإلى هنا فإن الامر طبيعي إلى حد ما . لكن الاغرب من ذلك أن الموضوع دخل مجلس الوزراء .. نعم أخذ مجلس الوزراء يناقش صعوبة مناهج الثانوية العامة ، وكان د. عبدالقادر حاتم يرأس المجلس ، وقرر تشكيل لجنة وزارية لبحث الموضوع ! إن الشكوى من مناهج التعليم العام أمر طبيعي والاراء بين التربويين متفاوتة حول هذا الموضوع ، لكن الطبيعي أن يدور الجدل حول هذا في أروقة الوزارة المختصة .. وزارة التعليم . أما أن يجد مجلس الوزراء الوقت لمناقشة مناهج الثانوية العامة بالذات وفي عام ١٩٧٤ بالذات عندما كان جمال السادات طالبا بالثانوية العامة ، فلابد أنه كان مصادفة سعيدة !

وقد شكلت اللجنة الوزارية لبحث هذا الموضوع من المرحوم د. حسن الشريف وزير التأمينات ، ود. محمود عبدالحافظ وزير الاسكان ، والدكتور كامل ليلة وزير التعليم السابق ، والمرحوم الاستاذ على عبدالرازق وزير التربية والتعليم . واستدعيت أنا لحضور اجتماعات اللجنة مع أساتذة آخرين من الجامعات ومن رجال الوزارة في مكتب وزير التأمينات . يشهد على هذه الواقعة كثيرون من رجال الجامعات الأحياء منهم : د. صبحي عبدالحكيم رئيس مجلس الشورى الحالي والذى كان يمثل مادة الجغرافيا ، والدكتور محمد أنيس والذى كان يمثل مادة التاريخ ، والدكتور محمد النادى الذي كان يمثل مادة الطبيعة . ولقد قلت للصديق المرحوم د. حسن الشريف ساخرا في التليفون : «ان العلاقة بين التأمينات ومناهج الثانوية العامة لابد وثيقة ، والا ما عقدتم الاجتماع في وزارة التأمينات» :

ولقد كان واضحا أن الاستاذ على عبدالرازق لم يكن راضيا عن هذا العمل ، ولذلك لم يحضر الاجتماع وحضر

الدكتور كامل ليلة الاجتماع قرب نهايته ، ودارت المناقشة أساسا بين المستشارين وبين وزيرى التأمينات والاسكان .
وكان واضحا منذ أول الاجتماع ، ان مادة الرياضيات هى المستهدفة بالاختصار الشديد ، ولذا دارت مناقشات حادة بينى وبين وزير الاسكان طالت لأكثر من ساعة ، وصممت على موقفى برفضى طلب وزير الاسكان بالغاء كتاب التفاضل والتكامل من مناهج الثانوية العامة، والتفت دكتور محمود عبدالحافظ إلى المرحوم دكتور حسن الشريف وقال بالانجليزية بصوت مسموع «لا فائدة .. لا يوجد طريق للتفاهم» .

وأرسل لى أستاذ جامعى تحت منصدة الاجتماع ، ورقة سلمها لى دكتور صبحى عبدالحكيم - الذى كان يجلس بجوارى، يقول فيها «كفى .. انك لن تقنع هؤلاء الناس بشئ أبدا» .

وانفض الاجتماع وأنا على موقفى ورجال الوزارة من أساتذة الرياضيات متضامنون معى فى هذا الموقف مقتنعون بالاسباب التى ابديتها فى رفض طلبات وزير الاسكان .

كان هذا فيما أذكر في يناير سنة ١٩٧٤ ، وبعدها نسيت الموضوع ، وانشغلت بأعمال كثيرة منها وضع امتحان الثانوية العامة لدور يونيو سنة ١٩٧٤ في الرياضيات ، ومنها الاعداد لسفري إلى بريطانيا لمدة ستة أشهر - من مايو إلى أكتوبر - كأستاذ زائر في احدى جامعات بريطانيا .. حتى كان يوم جمعة خلال شهر مارس سنة ١٩٧٤ خرجت فيه مع أسرتي لقضاء النهار في «برج التوفيقية» وتناول الغداء هناك .

وعندما عدنا بعد الظهر أخبرنا الجيران أن سيارة من رئاسة الجمهورية جاءت تسأل عني مرتين ، وان رجلا بالسيارة ترك لدى الجيران ورقة لتسليمها لي . وعندما فتحت الورقة وجدت أنها من مكتب الرئيس ومكتوب عليها بالحبر «رجاء الاتصال بأرقام التليفونات .... » ثم توقيع غير واضح . وأدرت قرص التليفون بأحد هذه الأرقام وقلت : «أنا فلان ...... ماذا تريدون مني ؟ » وعرفت أن الذي يرد على التليفون هو رجل قال عن نفسه انه العقيد رؤوف ،

وإنه يريد أن يعرف متى يرسلون سيارة من الرئاسة لحضوري إلى منزل الرئيس لأن جمال لديه أسئلة في الرياضيات يريد أن يسألني فيها ؟

وامتلأت نفسي بالغضب وقلت لمحدثي وأنا أحاول أن أضبط أعصابي ، إنك لاشك لا تعلم أن استاذ الجامعة بحال إلى مجلس تأديب إذا أعطى دروسا خاصة».

قال في برود : «لا أعرف» .

وقلت : «أنا واثق من ذلك .. وواثق أيضا أنك لا تعرف أنني واضع امتحان الثانوية العامة ! » .

قال في برود أيضا : «لا .. لا أعرف ، وأعطيته اسم احد المدرسين الأوائل بالمدارس الثانوية ليتصلوا به حتى يجيب عن اسئلة جمال السادات في الرياضيات ، ووضعت السماعة .

لكني بقيت في ثورة غضب طوال الليل ، وحاولت المرحومة زوجتي أن تهدئ من غضبي ، وفي الصباح ذهبت إلى وزير

التعليم .. المرحوم الاستاذ على عبدالرازق لاخبره بما حدث ولاعرف منه إن كان على علم بهذه المهزلة أم لا .

لقد كنت ومازلت أكن لهذا الرجل محبة ، لسابق معرفتى به ، ولم أكن اتصور أن يكون له صدا بهذا الموضوع ، ولقد أثنى الرجل على موقفى ، لكنى وجدته يحاول أن يقنعنى بالذهاب مرة واحدة إلى منزل السادات لتقييم «الولد» كما قال : فأمه منزعجة بسبب حالته وهى تخشى عليه من الرسوب فى الامتحان ولا تعرف ماذا تصنع !

وفهمت من الوزير أنها كثيرة الاتصال به فى هذا الموضوع ، وأنه يشعر بحرج شديد .

قلت له :

«لماذا لا ترسل لهم أحد مفتشى الوزارة أو مدرسيها الاوائل لتقييم الولد ، ان كانت المسألة مجرد تقييم ، إننى أريد أن أعرف من التى أعطاهم اسمى بالذات» .

قال الوزير :

«ان اسمك موجود على الكتب ، والكل يعرف انك تزور

المدارس كثيرا لمتابعة مشروع الرياضيات المعاصرة الذي بدأ مع اليونسكو.

وصممت على رفض طلب الوزير وقد حاول أن يستخدم معي حججا أخرى ، فقد قال :

«إن السادات خارج من حرب اكتوبر ، وليس لديه وقت للاشراف على الولد» .

وضحكت ، وقلت :

«هل تريد أن تقنعني أن السادات لو لم يكن خارجا من حرب اكتوبر لساعد ابنه في الرياضيات ؟ انني بصراحة لا أتوقع من وزير التعليم أن يطلب مني هذا الطلب» .

وانصرفت من مكتب الوزير حزينا وتملكني الشعور بأن ما حدث بالأمس ليس إلا المحاولة الثانية ، بعد فشل المحاولة الأولى في اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزارية ، وكان أشد ما أحزنني هو الشعور بأن مصر تدار كعزبة .. وعلى الخولي والتملي والانفار أن يكونوا في خدمات السيد صاحب العزبة ، وان الحديث عن سيادة القانون هو عبث في عبث .

ولم يمض على هذه الواقعة أكثر من شهر حتى حدث تعديل وزارى ! وخرج المرحوم على عبد الرازق من وزارة التربية والتعليم ، وعين دكتور مصطفى كمال حلمى مكانه فى ابريل سنة ١٩٧٤ ، وذهبت إليه مهنئا كصديق قديم – لكننى حكيت له القصة بأكملها وسألته إن كان يعرفها فقال إن هذه أول مرة يسمع بها ، قلت على الفور :

«على أى حال لقد رويت تلك القصة حتى لا يحاولون معك».

كان هذا فى ابريل سنة ١٩٧٤ ولم يبق على امتحان الثانوية العامة المصرية غير شهرين ، وقد عرفت بعد ذلك أن شخصا ما تقدم لهم بالحل العبقرى .. وهو اخراج ابن السادات من امتحان الثانوية العامة المصرى ، وادخاله امتحان الثانوية الانجليزية فى يونيو ، حيث لا يوجد امتحان فى اللغة العربية ، وحيث امتحان الرياضيات هو امتحان فى الضرب والقسمة !

أما من هو الشخص لم أعرف .. ومنذ ذلك الحين اكتشف ابناء القادرين وتلاميذ المدارس الخاصة ما اكتشفه ابن السادات عام ١٩٧٤ ، وهو ان هناك بابا خلفيا لدخول الجامعات المصرية حتى ولو كنت لا تعرف أي شيء عن لغتك القومية ، كما لا تعرف شيئا في الرياضيات ، وهذا الباب الخلفي يدعى «الثانوية الانجليزية» .

فمتى يتحرك وزير التعليم لتصحيح هذه الأوضاع المشينة..



الباب الثانى

شخصيات فى حياتى

ذكريات مع طه حسين

رغم أنني لم أكن من تلاميذ طه حسين وحوارييه ، رغم أن عدد مرات لقائي معه لم تزد على اصابع اليد الواحدة ، إلا أنني أحسست منذ شهور برغبة عارمة في أن اكتب عنه في هذه الذكرى الأخيرة . فطه حسين واحد من القلائل من جيل كبار كتاب ومفكري عصر المحدثين الذين اختلفت معهم فكريا وإن كنت احببتهم ، وظل هذا الحب والاعزاز كامنا في القلب والضلوع على طوال السنين .

ولقد نشأت وترعرعت في ظل عائلة بسيطة ذات ميول وفدية ، وتفتحت براعم ذهني في الثلاثينات على اسم طه حسين كأسطورة شبه مقدسة ، لا لأنه صاحب دعوة «التعليم كالماء والهواء» فحسب ، ولا لأنه صاحب «الأيام» التي هزت وجدان صباي فحسب ، ولا لأنه كان كاتبا وفديا كبيرا فحسب ، وإنما لأنه فوق كل شيء مثقف مصري صادق الوعد لا يفصل بين تفكيره ومواقفه العملية ، مستعد للتضحية من أجل عقيدته الديمقراطية ودفاعه عن الشعب .

فقد كان طه حسين العدو اللدود لدكتاتور مصر في الثلاثينات اسماعيل صدقي ، فصله من منصبه كعميد لكلية الآداب فلم يتراجع العميد عن موقفه .

كان طه حسين مفكرا مناضلا عندما تراجع أخرون من المثقفين وأثروا السلامة !

ولعل من الأسباب التي دعتني إلى الكتابة عنه هذا العام أنني قرأت منذ شهور كتاب زوجته السيدة سوزان طه حسين عنه بعنوان «معك» ولقد هزني الكتاب بشدة ، هزني عاطفيا لجمال المشاعر الإنسانية التي عبرت فيه السيدة الفاضلة - وبأسلوب شاعري أنيق - عن عواطفها تجاه زوجها المفكر الكبير ، لكن الكتاب افزعني في نفس الوقت !

فمن يقرأه قد يخرج بانطباع أن طه حسين كان مفكرا فرنسيا وليس مصريا من صميم ريف مصر وطينة فقرائها . ولست استطيع أن الومها كثيرا في ذلك لأنها تكتب عما رأته من طه حسين في داخل منزلهما ورحلاتهما الصيفية في ربوع أوروبا ، ولقاءاته مع المفكرين الغربيين ، كما أنها

بطبيعة كونها فرنسية الأصل كانت معزولة عن كثير مما يجرى خارج المنزل من طه حسين وله .

أن الذين كتبوا عن طه حسين في السنين الأخيرة لم يبرزوا جانبا اساسيا في شخصيته ، اعني ولاءه لشعب مصر ، وعندما اذكر هنا شعب مصر فإنما اعني جماهير فقرائها الذين يمثلون الغالبية الساحقة لهذا الشعب . ولقد برز هذا الولاء على النطاق الوطني في كتبه وعلى الاخص كتاب « المعذبون في الأرض » كما برز في سياسته التعليمية عندما كان مستشارا لوزارة التربية والتعليم أولا ثم عندما كان وزيرا التعليم بعد ذلك . ومن أجل هذا الولاء خاض طه حسين معارك كثيرة – فكرية وشخصية – وتحمل كثيرا . وكان القصر انذاك في طليعة الناقمين عليه بسبب مواقفه الديمقراطية في التعليم وبسبب كتاب « المعذبون في الأرض » ، حتى أن فاروق تردد كثيرا في تعيينه وزيرا للتعليم عندما عادت وزارة الوفد في يناير سنة ١٩٥٠ إلى الحكم أثر انتخابات عامة عبرت فيها الجماهير عن ارادتها الحازمة بشكل ساحق .

وكل هذا معروف بطبيعة الحال وموثق تاريخيا ، لكن ما لا يعرفه الكثيرون أن طه حسين كان على المستوى الشخصي راعيا ومشجعا الكثير من شباب مصر المغمورين ، دافعا لهم لمزيد من التعليم ، سعيدا بهم سعادة الأب بأبنائه حتى عندما كانوا يختلفون معه !

ولقد شاءت الظروف أن أكون واحدا من هؤلاء ، لم اقصد هذا قصدا ولم يقصده ، ولم يكن يخطر في بالي وأنا شاب صغير مغمور أنني سألتقي يوما من الأيام وجها لوجه مع هذا « الجبار » كما كانوا يسمونه في محيطنا ! ثم كان أول لقاء لنا منذ واحد وثلاثين عاما ، وبالتحديد في يناير سنة ١٩٥٠ .

كان طه حسين وزيرا جديدا للتعليم ، وكنت معيدا بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية جرى توقيفي لعدة شهور مع غيري من المعيدين بجامعتي القاهرة والاسكندرية ابان وزارتي النقراشي وابراهيم عبد الهادي ، وخلال عام سنة ١٩٤٩ كانت معتقلات مصر في الهاكستيب وأبو قير والطور ممتلئة

بألوف الشـبـاب من طليـعـة الوفد والأخـوان المسلمين والتقدميين، وعندما جاءت وزارة الوفد أول عام ١٩٥٠ أطلقت سراح الجميع .

وعدت إلى جـامـعـة الاسكندرية لاسـتـلام عملي ، لكنني فوجئت وغيري بتلكؤ الجامعة في قبول عودتنا لعملنا ، وبدأت الشـائعـات تقول أن مدير الجـامـعـة - وكان مـعـروفـا أنذاك بصلته بالقصر - يريد أن ينقلنا إلى التعليم العام ، وأن عميد الكلية متواطيء معه في هذا الأمر ، وران اليأس على قلبي واستبد بي الظلام ، ماذا أفعل ؟

ركبت أول قطار إلى القاهرة قاصـدا مكتب وزير التعليم وطلبت مـقـابلتـه لشـرح الأمـر له ، وكانت الوزارة تعج بمئـات القـادمين للتهنئة وقضـاء الحاجات ، ولم أكن اطمع في هذه الظروف - وأنا بلا واسطة - في أكثر من تحـديد موعد لي بعد اسـبـوع على أقل تقدير ، لكن مـا بهرني أن طه حسين طلبني للقـائه بعـد نصـف سـاعـة من وجـودي في مكتـبـه ، واستـمـع إلى طويلا ولم ينبس ببنت شـفـة طوال حديثي ، ثم

اشار إلى سكرتيره أن يأخذني إلى مكتبه وأن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية على الهاتف . ولست أدرى بطبيعة الحال ما جرى بينه وبين مدير الجامعة ، لكنه طلبني مرة أخرى بعد انتهاء الحديث ولم يزد على أن قال : «عد إلى الاسكندرية واستلم عملك في الجامعة» . وقد كان ..

حاولت أن اشكر طه حسين بكلمات متلعثمة وأنا انسحب من غرفته ، وعندما ذهبت إلى الاسكندرية كانت الشائعات قد سبقتني إليها ، عن هذا اللقاء وعن حديث طه حسين مع مدير الجامعة ، حتى قال أحد اساتذة الجامعة أنه عرف أن حديث الوزير لمدير الجامعة كان حادا وأنه قال له «الحق أحق أن يتبع يا صادق بك» !

بعد تسعة اشهر من هذا اللقاء سافرت في بعثة دراسية إلى بريطانيا للحصول على الدكتوراة في الرياضيات ، وعدت في سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد حصولي عليها من جامعة لندن ، وبعد أن قامت ثورة يوليو في نفس ذلك الصيف . ولم أكد اصل إلى القاهرة حتى سمعت كلية العلوم بجامعة

القاهرة إلى نقلي إليها من الاسكندرية لحاجتها إلى تخصصي . وتم هذا في نوفمبر عام ١٩٥٢ ، وهكذا بدأت حياتي العلمية والصحفية في القاهرة ..

في ظل الشهور الأولى لثورة يوليو كانت الحرية الصحفية واسعة نسبيا ، وكنت قد بدأت - مع التدريس في جامعة القاهرة - اكتب مقالات في قضايا الادب والفكر في جريدة «المصري» التي كانت تخصص صفحتها الأخيرة كل يوم أحد لقضايا الأدب والفن والفكر . .

ولم أكن اعلم أن طه حسين كان يقرأ هذه المقالات وأنه كان يضيق ببعضها حتى كان لقاؤنا الثاني بمنزله بالزمالك عام ١٩٥٣ .

قبل هذا اللقاء بشهور كنت قد انتقلت من الكتابة في صحيفة «المصري» إلى الكتابة في مجلة «روز اليوسف» بعد مقال طويل كتبته عن قصص إحسان عبد القدوس ، ومع أن هذا المقال لم يكن مزكيا لادب إحسان ، إلا أن سعة افقه في العمل الصحفي جعلته يطلب التعرف إلى ، ثم طلب مني أن أكون أحد كتاب روز اليوسف. وهكذا كان ..

وعندما انتقل فتحي غانم من «روز اليوسف» إلى «أخبار اليوم» سألني إحسان أن أكتب أسبوعيا باب «أدب» الذي كان فتحي غانم يتولى تحريره قبل انتقاله ، وبدأت أكتب الباب أسبوعيا . وكان من بين ما كتبته آنذاك مقال تضمن هجوما على كتاب جديد صدر لتوفيق الحكيم لاتجاهه الفكرى السلبي . ولست أذكر الآن اسم الكتاب ولكن أذكر أنني قلت في هذا المقال : «إن توفيق الحكيم يجلس على قمة المستوى المائل ، وأنه ينحدر !» وأذكر أن هذا المقال أثار ضجة لدى الكثيرين من محبي أدب توفيق الحكيم ، وأن أحدهم رد على مقالي بمقال في «روز اليوسف» ولعل كاتبه كان الصديق العزيز بدر الدين أبو غازي وزير الثقافة الأسبق.

لقد أسهبت في وصف ظروف كتاباتي آنذاك لأن هذا كله وثيق الصلة بلقائي الثاني بطه حسين ، وبما دار في هذا اللقاء من نقاش . أما أسباب هذا اللقاء نفسه فكانت أيضا

غريبة وذات دلالة في مواقف طه حسين رغم أن الموضوع كان في اساسه شخصيا وليس عاما .

لقد اسهبت في وصف ظروف كتاباتي آنذاك لأن هذا كله وثيق الصلة بلقائي الثاني بطه حسين ، وبما دار في هذا اللقاء من نقاش . أما اسباب هذا اللقاء نفسه فكانت أيضا غريبة وذات دلالة في مواقف طه حسين رغم أن الموضوع كان في اساسه شخصيا وليس عاما .

لقد جاءني زميل لي في الجامعة ، كان ولا يزال من ابرز اساتذة الرياضيات في مصر ، في أحد أيام عام ١٩٥٣ وسألني إن كنت أعرف طه حسين . وقلت له إنني لم أر طه حسين غير مرة واحدة في حياتي وأغلب الظن أنه قد نسيني ، وشرحت له ظروف هذا اللقاء . ولما سألته عن سبب السؤال عرفت أنه كان قد تقدم إلى جائزة «أمين لطفي» في الرياضيات وأن طه حسين عضو في اللجنة التي ستقرر الفائز لها ، وأن لديه معلومات مؤكدة أن بعض اعضاء اللجنة من رجال وزارة التعليم يبيتون النية على منحها لشخص آخر

وثيق الصلة بالسلطة ذكر لي اسمه وأنا اعلم عن ثقة بطبيعة تخصصي أن هذا الآخر لا يستحقها .

واستعنت باحسان عبد القدوس لكي يطلب لي موعدا مع طه حسين ، وتم تحديد الموعد في اليوم التالي الساعة الحادية عشر صباحا .

كان محمود النحاس - مدير الأوبرا آنذاك - حاضرا في هذا اللقاء ، وشرحت لطه حسين قلق زميلي مما يبيت له من بعض رجال التربية والتعليم ، وقناعتي الشخصية بامتياز هذا الزميل في البحوث الرياضية قلت له «إنني اترك لك الموضوع بأكمله واثقا من أنك سوف تنصف صاحب الحق» .

انصت طه حسين لكل ما قلته ، وأنا اشعر بالارتباك والهيبة في حضرته ، ثم قال : «قل لصديقك هذا أنه لن يظلم ما دمت في هذه اللجنة» ، وهذا ما تم بعد أن فقد منحت الجائزة له في نهاية الأمر .

غير أن طه حسين انتهز فرصة هذا اللقاء لشاغبتي حول ما اكتبه في قضايا الفكر والادب ، وبدأ سائلا لي : «ما

علاقتك بالأدب وأنت أستاذ في العلوم، وشرحت له أنني نشأت في عائلة كثير من رجالها يحبون الأدب ويتولون تدريس اللغة العربية بالمدارس ويهوون الشعر بالذات ، وأنني لم اشذ عن هذا التقليد إلى درجة أنني ترددت فترة عند التحاقي بالجامعة بين الالتحاق بكلية الآداب أو بقسم الرياضيات بكلية العلوم ، وأنني كنت في شبابي المبكر شاعرا فاشلا ! .

ثم تجرأت وسألته رأيه فيما اكتب ! قال : «ينبغي أن تزيد من قراءاتك وإلا تكن ضيقا في نظرتك ، انكم تتياسرون وتظنون أنني على يمينكم . هل كتب احدكم شيئا كالمعذبون في الأرض !» .

ولقد خرجت من هذا اللقاء الثاني متيقنا أنه ما زال يذكر لقاءنا الأول منذ ثلاثة أعوام ، وأنه تصرف معي تصرف الأب الرحيم عندما يزجر واحدا من ابنائه ويرده إلى ما يعتقد أنه الصواب ، وأنه كان سعيدا لأن يرى أحد ابنائه ناجحا في السلك الجامعي ، مهتما بقضايا الفكر والأدب .

ولم يدر بخلدي أنذاك في اللقاء الثالث سوف يتم بعد ذلك بشهور قليلة ، وبالتحديد في مارس سنة ١٩٥٤ ، في نادي القصة وفي حضور نجيب محفوظ ويوسف غراب ووداد سكاكيني وآخرين لا أتذكرهم الآن ، وأنه سوف يكون لقاء عاصفا ! لكن لذلك قصة أبدأ الآن في شرحها من بدايتها ..

كانت جريدة «الجمهورية» - لسان حال الثورة - قد صدرت عام ١٩٥٣ ، وكان طه حسين في أبرز كتابها ، له مقال اسبوعي يتابعه المثقفون بشغف في قضايا الأدب والفكر . وفي فبراير من ذلك العام كتب طه حسين مقالا بعنوان «صورة الأدب ومادته» قدم فيه النظرة النقدية للمدرسة التقليدية في الأدب ، وتقوم هذه النظرة على أن اللغة هى صورة الأدب وأن المعاني هي مادته وإن كان قد أضاف إلى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً سماه «عنصر الجمال» لم يوضح نظرته إليه .

وتمنى طه حسين في ختام مقاله من الأدباء الشبان أن يوضحوا رأيهم ونظرتهم النقدية في الأدب . وأحسست عند

قراءتي لمقال طه حسين كأنه يوجه لي تحديا شخصيا ، وتذكرت ما قاله لي بمنزله بالزمالك في لقائنا الثاني .

واتفقنا - محمود العالم وأنا - على أن نرد على طه حسين ردا مهذبا ومطولا في جريدة «المصري» نشرح فيه وجهة نظرنا ، وأوجه خلافنا مع نظرته ونظرة جيله من الكتاب . ولخصنا في ختام هذا المقال وجهة نظرنا على النحو التالي:

أولا : إن مضمون الأدب (أو مادته) ليس المعاني وإنما هو في الجوهر الأحداث التي تجري في العمل الأدبي ، وأن هذا الأحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية الدلالة .

ثانيا : أن صورة العمل الأدبي (أو صياغته) ليست هي الأسلوب وإن كان الأسلوب عنصرا من عناصر الصورة . فالصورة عملية تشكيل هذا المضمون وجوانب الإضاءة والظلال فيه . إنها عملية إبراز عناصر هذا المضمون وتنمية مقوماته .

ثالثاً : أن تحديد الدلالة الاجتماعية للعمل الأدبي لا يتعارض مع تأكيد قيمة الصورة أو الشكل الأدبي ، بل على العكس قد يساعد على الكشف عن كثير من أسرار هذا الشكل .

رابعاً : أن النقد الأدبي – على هذه الأسس – ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسب ، وإنما هو استيعاب لكافة مقومات العمل الأدبي ما يتفاعل فيه من أحداث وعلاقات ، وبهذا يصبح الكشف عن المضمون الاجتماعي ومتابعة عملية الصياغة مهمة واحدة متكاملة للناقد الأدبي .

وبطبيعة الحال ضربنا أمثلة من الأدب الأوروبي والمصري لتوضيح وجهة نظرنا ، وانتظرنا رد فعل طه حسين لمقالنا ، وجاء رده على صفحات الجمهورية في مقال بعنوان «يوناني فلا يقرأ» قال فيه: إنه لم يفهم شيئا مما تعنيه ، وأن ما كتبناه لا يخرج أن يكون كلاما يونانيا كما يقول الاوروبيون ! ثم سألنا عن رأينا في أدب الطبيعة وما هي دلالته الاجتماعية يا ترى؟ !

حتى هذا الحد كان الحوار مقبولا وكنا على استعداد لأن نكتب بشكل أكثر تفصيلاً توضح فيه ما نعنيه ، وإن كان قد ساورنا الشك أن طه حسين كان يفهم ما نعنيه وأنه اراد أن يدعي غير ذلك !

غير أن الأمور في هذا الحوار تطورت بشكل غير متوقع ، بدخول عباس العقاد ساحة النقاش بمقال مطول في «أخبار اليوم» عنوانه : «إلى ادعياء التجديد .. اقرأوا ما تنتقدونه» ! ومع أننا لم نتعرض في مقالنا بأنه موجه ضده شخصيا ، وهكذا كان رده ، واستفزازيا وساخرا وعنيفا ومليئا بالغمز واللمز حول ميولنا السياسية .

وفي حماس الشباب وعنفوانه لم نملك إلا أن نكتب ردًا اشد عنفا واستفزازا كان عنوانه «عبقرية العقاد» . ومع أن المقال كان في معظمه مناقشة في قضايا الأدب إلا أنه امتلأ بالغمز واللمز عن قصائد العقاد في مدح الملك فاروق ومقالاته في جريدة «الأساس» ضد الشيخ حسن البنا ودور الأنجليز في كتابه «هتلر في الميزان» .

وفي هذا الجو المحموم ، وبعد صدور مقال «عبقرية العقاد» بيومين ذهبت إلى نادي القصة ولم أكن ادري أنني في طريقي إلى لقاء عاصف مع طه حسين !

احسست منذ أول وهلة وأنا اسلم عليه بأنه غاضب ، ولم أكد اجلس على أحد مقاعد الغرفة حتى بادرني قائلا «أنا زعلان منك .. كيف تسمح لقلمك أنت وصديقك أن يشتد في الهجوم على الاستاذ العقاد إلى هذا الحد؟» .

قالت السيدة وداد سكاكيني وكانت من حضور هذه الجلسة : «البادي اظلم يا باشا» وقال نجيب محفوظ جملة أو جملتين في محاولة لتهدئة غضب طه حسين .

وبعد برهة ثم بدأت اشرح وجهة نظري في الموضوع كله، لكنه لم يقتنع ولم يكن في الحقيقة منصتا لما أقول ، واشار إلى بعض الحاضرين أن اصمت لأنه لا مجال للمناقشة في مثل هذا الجو .

وخرجت من نادي القصة حزينا مهموما لأنني لم أكن أحب أن اراه غاضبا إلى هذا الحد ، ثم خطر لي بعد ذلك ان

اكثر ما ضايقه هو غمزنا العقاد فى قصيدته التى مدح بها فاروق . فقد كان لطه حسين خطاب معروف فى افتتاح جامعة الاسكندرية - وفى حضور فاروق - امتلأ بمدح الملك ومدح اسرته . ولعل هذا التفسير قد اراحنى نفسيا إلى حد كبير ، ولم أيأس فى أن تصفو نفسه بعد هدوء العاصفة .

واحسب انى لقيت طه حسين بعد ذلك بسنوات مرة أو مرتين فى مناسبات خاطفة لم نتبادل فيها كلاما كثيرا . لكن ما ادهشنى بعد ذلك أن أعلم انه كان يتابع ما اكتب متابعة الاب لاحد ابنائه . وكان يسأل عنى كلما جمعته لجنة الترجمة فى المجلس الاعلى للفنون والاداب أو جلسات المجمع اللغوى بواحد من اشقائى .

ومضت سنوات طويلة لازم فيها طه حسين بيته بسبب مرضه ، وخطر لى أكثر من مرة ان اذهب لزيارته ، لكنى تراجعت بعد ذلك لاننى لم أكن متيقنا ان العلاقة بيننا تسمح لى بهذه الزيارة .

ثم جاء النذير بالنبأ التعيس .. نبأ وفاته فى اكتوبر عام ١٩٧٣ . واحسست بغم ثقيل ، وتملكتنى كآبة دامت أياما ،

وعندما مشيت في جنازته التي خرجت من جامعة القاهرة لم أكن احس أن مصر فقدت رجلا من كبارات رجالها ومفكريها فحسب ، وانما كنت أحس انني فقدت انسانا عزيزا على نفسي قريبا من قلبي ، على الرغم من انني لم اقابله غير مرات معدودة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، وعلى الرغم من خلافنا في الفكر .

الطريق المسدود

منذ أيام كتب الاستاذ توفيق الحكيم يصف روايات الاستاذ احسان عبدالقدوس قائلا : انها القصة ذات المفتاح . وهو يعني بذلك ان الرواية كثيرا ما تنطوي على مبدأ معين ، فكرة معينة ، وحينما ندرك من احداث الرواية هذه الفكرة تكون قد فتحت الباب إلى فهم القصة فهما صحيحا .

واحسان مغرم بالقصص ذات المفتاح ، ولكنه فوق ذلك مغرم بوضع مفتاح كل قصة من قصصه على صورة شعار معين ، فمثلا في رواية «الطريق المسدود» يقدم لنا احسان منذ البداية وقبل أن نعرف احداث الرواية الشعار التالي :

«ان الخطيئة لا تولد معنا ولكن المجتمع يدفعنا إليها».

وهذا هو (في تقديره) مفتاح قصته.

فلنتخذ اذن من مناقشة هذه المسألة نقطة بدء..

أولا: يعتبر تقديم «مفتاح القصة» في البداية خطة فنيا واضحا. فالمفروض أن الروائي يقودنا، نحن قراءه، في طريق أوله مجهول ووسطه غموض وآخره وضوح عند القارئ اللبيب.

ثروت عكاشة وأنا

أسعدتـــي تماما ما فعلته الدكتـورة سعاد الصباح - التي أحمل لها كل تقدير منذ لقائنـا في ندوة للأمم المتحدة منذ سنوات طويلة - من تكريم للدكتـور ثروت عكاشـة وزير الثقافة الأسبق . ففضل هذا الرجل على الثقافة في مصر طوال سنوات وزارته لا يمكن إنكاره إلا لجـاحـــد . وأنا شخصيا أحببت هذا الرجـل طـوال حياتي وطوال الأيام التي عرفته فيها، وقد عملت تحت رئاسته عاما كاملا (من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى نوفمبر سنة ١٩٦٨) كنت فيها معارا من الجـامعـة كرئيس مجلس إدارة شـركة الكاتب العربي للطباعة والنشر ، فكان كريما غـاية الكرم في تعامله معي حتى عندما كنا نختلف فـي الرأي ، وكـان من عادته أن يعقد اجتماعا أسبوعيا في مكتبه يحضـره كل رؤسـاء المؤسسات والشركات التي تتبع وزارة الثقافة ، من جهابذة المثقفين المصريين : نجيب محفوظ، عبدالرازق حسن ، محمود أمين العالم ، سهير القلماوي ، سعد وهبة ، سعد كامل ، علي الراعي .. الخ .

ولقد عرفت ثروة عكاشة قبل الثورة ، إذ كنا من شباب حي العباسية ، ومع أنها كانت معرفة عابرة ، إلا أنها تجددت بعد الثورة . عندما كان هو الملحق العسكري لمصر في باريس، وكان سكرتيره الخاص أنذاك أحمد طرباي – أحد شباب الطليعة الوفدية – الذي توثقت علاقتي به عندما كنا سويا في معتقل الطور عام ١٩٤٩ .

وعند عودتي من بريطانيا إلى القاهرة في صيف ١٩٥٤ ، مررت بباريس وقابلني أحمد طرباي ودبر لي لقاء ثروت عكاشة في مكتبه الذي سألني عن الأحوال في مصر فتحدثت معه بصراحة . والغريب انني عندما قابلته في باريس في أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٤ لم أكن على علم أن قرارا من مجلس قيادة الثورة بفصل ٤٢ أستاذا من الجامعة كان قد صدر وانني واحد من المفصولين . ولم أعلم بهذا القرار إلا عند وصولي إلى الاسكندرية .

ولقد انقطعت صلتي بثروت عكاشة حتى وقعت كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فقام بدعوة عدد من المثقفين إلى اجتماع في

مكتبه ، وكنت واحدا منهم وأتذكر من الحاضرين يوسف إدريس وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمود العالم وعلى الراعى وآخرين ، وكنا جميعا فى غاية الثورة على حجم الهزيمة وعلى الخديعة التى مررنا بها جميعا عن أحوال الجيش المصرى . وكان ثروت عكاشة صبورا مع صراحتنا التى تحدثنا بها ، وقد خرجنا من هذا الاجتماع باتفاق على عقد اجتماعات أخرى ، لكن هذا لم يحدث .

حتى جاء شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ ، وكنت أحاضر كالعادة يوم الخميس فى كلية العلوم بجامعة عين شمس عندما فتح الباب وإذا بأحد سعاة الكلية يقول لى إن مكتب وزير الثقافة على التليفون ، واستنأت من دخوله هكذا ، وقلت له أن يبلغهم بأننى سوف اتصل بهم عندما تنتهى محاضرتى.

وبالفعل أبلغنى د. ثروت عكاشة عندما اتصلت به ضرورة حضورى فورا إلى مكتبه لأمر مهم ، وعندما قابلته أبلغنى بأنه قابل الرئيس عبدالناصر فى اليوم السابق وعرض عليه ترشيحات وزارة الثقافة وأن عبدالناصر اقترح اسمى رئيسا

لمجلس إدارة الكاتب العربي للطباعة والنشر بدلا من الأستاذ محمود العالم الذي عين رئيسا لمؤسسة المسرح .

وحاولت أن أعتذر قائلا إنني أفضل عملي بالجامعة على أي عمل آخر ، فقال لي : « إنك لا تستطيع أن تعتذر ، فهذا توجيه من الرئيس » ، قلت ، إذن : ليكن هذا التعيين بمثابة إعارة من الجامعة لمدة عام أجري فيها عملي الجديد ، وبعدها يكون لكل حادث حديث» ووافق على ذلك وقد تبين بعد ذلك أنه كان قد حصل على موافقة وزير التعليم العالي دون أن تعلم الكلية أو الجامعة شيئا عن هذه الإعارة .

وقد حاولت انقاذ هذه الشركة من ظروفها المالية السيئة وأعدنا تنظيم العمل في مطابعها ، واستعنت بعلاقتي القديمة بوزير الخزانة - الدكتور نزيه ضيف - للحصول على قرض للشركة يساعدها على دوام نشاطها في النشر ، وتعاقدت مع وزارة التربية والتعليم في ليبيا لطبع كتب مدرسية بحوالي ربع مليون جنيه استرليني فضلا عن نشاط الشركة في نشر

الكتب والموسوعات ، وبعد انتهاء العام تمكنت بإنهاء إعارتي وعودتي إلى الجامعة مرة أخرى .

* * *

إن السبب الذي دعاني إلى كتابة هذا المقال الذي أعبر فيه عن سعادتي بتكريم ثروت عكاشة ، هو انني أحسست منذ صدور كتابه «مذكرات ثروت عكاشة» وما كتبته من مقالين انذاك عن هذه المذكرات في صحيفة «الأهالي» بأنه - أي ثروت عكاشة - غاضب مما كتبته ، وقد اتصل انذاك بالأستاذ خالد محيي الدين في ثورة عارمة وهدد برفع دعوى ضد جريدة الأهالي وضدي ، وحاول خالد محيي الدين كما حاول الأستاذ حسين الشافعي اقناعه بأن ما كتبته لا يحوي أي طعن فيه ، لكنه كان تحت فكرة متسلطة عليه قوامها أن ما دفعني إلى كتابة ما كتبت هو الصديق محمود العالم - وثيق الصلة بشعراوي جمعة وزير الداخلية الأسبق - الذي يحاول الاساءة إلى اسم ثروت عكاشة .

ونظرا لأهمية الموضوع ولأن الموضوع قد أحاطه سوء الظن من أوله إلى آخره ، ولأننا - ثروت عكاشة وأنا - نقترب من أيام عمرنا الأخيرة ، رأيت أن أكتب للتاريخ هذه الكلمة اشرح كيف وقع سوء الظن هذا الذى لم يكن لمحمود العالم أي دخل فيه .

عندما نشر ثروت عكاشة مذكراته كان من الطبيعي أن يتطلع إلى تعليق من جريدة الأهالي عليها واتصل بخالد محيي الدين - وهو صديق عمره في سلاح الفرسان - يسأل عن ذلك الذى اتصل بدوره بالأهالي فقال له رئيس التحرير إنه اتفق معي على الكتابة عن هذه المذكرات . ثم قابلني خالد محيي الدين في عزاء أحد الأصدقاء وقال لي إن ثروت عكاشة يسأله عن هذا الموضوع فاستمهلته حتى انتهي من محاضراتي في الجامعة ، ثم أكتب التعليق .

وبالفعل كتبت مقالين عن هذه المذكرات أشدت فيهما بجهوده في ميدان الثقافة ، لكن لفت نظرى فيها أمران : أولهما اختلاط بعض التواريخ على الدكتور عكاشة . وهذا

أمر طبيعي يحدث لنا جميعا ، فحاولت تصحيح بعض هذه التواريخ . أما الأمر الثاني الذي لفت انتباهي – وكنت خالي الذهن تماما عنه – فهو الإشارة في هذه المذكرات إلى محاولة جر اسم الدكتور عكاشة إلى قضية صلاح نصر والمخابرات وتحقيقاتها التي جرت بعد كارثة يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ورد في هذه المذكرات أن السادات- بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية – طلب من شعراوي جمعة – وكان لايزال وزيرا للداخلية – طلبا يخص الدكتور عكاشة . اعتذر عنه وزير الداخلية .

كان من الطبيعي أن يلفت نظري هذا الكلام في المذكرات التي لم يكن بها أي تفصيل في هذا الموضوع . لكن الذي أثار انتباهي أكثر انني قرأت حديثا لشعراوي جمعة في مجلة روز اليوسف – في الوقت نفسه الذي كنت أكتب فيه مقالاتي – ينفي فيه بعض ما جاء في مذكرات ثروت عكاشة .

وبالطبع أدهشني هذا ونوهت به في جملة عابرة في مقالي الأول، وكنت حتي تلك اللحظة خالي الذهن تماما من حقيقة

التوتر الذي كان قائما بين ثروت عكاشة وشعراوي جمعة .
ومن قضايا تحقيقات المخابرات بعد عام ١٩٦٧ ، ويهمني أن
أوضح انني لم التق بشعراوي جمعة - وهو وزير الداخلية -
أبدا ، وانني كنت التقي به أحيانا لقاء عابرا في شوارع مصر
الجديدة فيعلق على مقالاتي في صحيفة الأهالي مستحسنا .
وذلك في مرحلة الثمانينيات .

لم أدخل التنظيم الطليعي !

بمعنى آخر لم تتوافر لي علاقة بشعراوي جمعة ولا بأي
قطب ناصري عندما كانوا في السلطة . كما انني لم أدخل
في التنظيم الطليعي . ولذلك فإن ما تصوره الدكتور عكاشة
من ان إشارتي المقتضبة إلى بعض ما لفت نظري في هذه
المذكرات هو من تحريض محمود أمين العالم بإيعاز من
شعراوي جمعة رئيسه في التنظيم الطليعي هو محض خيال
يعلم الله أن محمود العالم بريء منه تماما . وانني لم أكن
على علم بخلفيات هذه الأمور عندما أعددت مقالي للنشر في
«الأهالي» . لكن الأمور تطورت بعد ذلك . فقد اتصل بي

شعراوى جمعة تليفونيا بعد ظهور مقالاتي في الأهالي ورجاني أن أمر عليه في منزله بشارع نزيه خليفة أمام حديقة الميرلاند في مصر الجديدة .

وقد مررت عليه الساعة الثانية ظهرا - وكنا في شهر رمضان فيما أذكر - ويشرح لي شعراوي جمعة وجهة نظره فيما قيل من توتر بينه وبين د. ثروت عكاشة .

وخرجت من منزله وقد اكتشفت مدى جهلي بأشياء عديدة تتعلق بالسلطة في مصر أيام المرحلة الناصرية وما بعدها . ولقد كتبت ما كتبت في مقالات الأهالي دون أن أعلم أي شيء عن هذه القضايا . وإنما نوهت بما لاحظته من تباينات بين كلام وزيرين سابقين كانا يعملان في نظام سياسي واحد ، كما نوهت بما بدا لي غامضا في المذكرات .

وقد انتهى هذا الموضوع كله عندما قام الاستاذان حسين الشافعي وخالد محيي الدين بإقناع الدكتور عكاشة بأن المقالين اللذين نشرتهما الأهالي ليس بهما ما يسيء إليه ، وانني من باب أولي لم أقصد الاساءة إليه من قريب أو بعيد .

ولعله اقتنع بحسن نيتي عندما كتبت ما كتبت وإن كنت أشك في ذلك .

ويهمني اليوم – بمناسبة الاحتفال بتكريم د.عكاشة – أن أقول إنني حملت له طوال حياتي كل التقدير في هذا العمل الفذ الذي قام به كوزير للثقافة ، وإنني أرجو له موفور الصحة والمزيد من النشاط الفكري الكبير الذي يخلد اسمه ضمن كبار مثقفي مصر والعالم العربي ، كما يهمني أن أشكر الدكتورة سعاد الصباح على هذه اللفتة الكريمة التي كان من المفروض أن تبدأ في مصر..

رأيت إحسان لأول مرة فى المدرسة ، مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، كان هو فى السنة الخامسة أو الرابعة - لا أذكر بالضبط - وكنت بالسنة الأولى ، وكانت هذه السنة - ١٩٣٥ - فى سنة المظاهرات ضد الانجليز وكان حزب الوفد فى مقدمة المحرضين على هذه المظاهرات . لكن مشكلة مدرستنا أن كان على رأسها ناظر اتسم بالحزم والشدة (إسماعيل القبانى) فلم يكن يتردد فى فصل أى تلميذ يراه يهتف بالشعارات السياسية فى فناء المدرسة . وكان من الطبيعى أن يكون «الهتيفة» من تلاميذ السنة الرابعة والخامسة .

ولما زاد عدد المفصولين من تلاميذ الصفين الرابع والخامس ، تفتق ذهن الباقين منهم ، عن حيلة حتى لا يستطيع الناظر أن يرى المسئول عن بدء الهتافات .

وتتلخص الحيلة فى أن يبدأ واحد من تلاميذ السنة الأولى من القصار بالهتاف على أن يحيط به تلاميذ الصفين الأخيرين من جميع الجوانب ويقتصر دورهم على ترديد الهتاف وراءه فلا يستطيع أحد معرفة من الذى بدأ الهتاف

في المدرسة ، وتطوعت أنا وغيري من تلاميذ السنة الأولى لأداء هذه المهمة ، وخرجنا إلى الشارع وعندئذ اصطدم البوليس بنا وأطلق بنادق الرش علينا فقمنا برميه بالطوب وكانت معركة انتهت بالقبض عليّ في المساء من منزلي بينما نجا إحسان مع أنه كان في مقدمة المظاهرة .

ودخلت السجن لأول مرة في حياتي وقضيت أربعا وعشرين ساعة ما بين حجز قسم الوايلي وتخشيبة محافظة القاهرة ، ولم يفرج عني إلا بسبب صغر سني إذ كنت في الثامنة عشرة من العمر ، وعندما عدت في اليوم التالي إلى المدرسة استقبلت استقبالا حماسيا من التلاميذ .

ولابد أن إحسان كان قد تابع هذه الأحداث وتيقن من شكلي المميز تماما ، ولأنني عندما قابلت احسانا بعد الثورة في مكتبه بروز اليوسف بعد سبعة عشر عاما من هذه المظاهرات وجدته يذكرني بها وبحادث القبض عليّ لمدة يوم كامل .

كان إحسان - تلميذا مرموقا في المدرسة ، فأمه السيدة روزاليوسف الصحفية المشهورة ووالده الأستاذ محمد عبدالقدوس الممثل المعروف ، بينما لم يكن أحد يعرفنا ، ومع أن إحسان لم يكن آنذاك يعرفني شخصيا إلا انني كنت أعرف عن طريق أقاربي من عائلة أمي القاطنين في حي العباسية الكثير عنه ، فقد كنت أعرف أنه يقيم مع عمته في شارع رضوان شكري (حيث كان يقيم نجيب محفوظ) سنين طويلة ، وأنه ظل يقيم مع عمته السيدة نعمات رضوان إلى أن أنهى دراسته الثانوية والتحق بكلية الحقوق فانتقل إلى منزل والدته .

وظللت أتابع من بعيد إحسانا في عمله الصحفي ومقالاته النارية عن قضية الأسلحة الفاسدة دون أن نلتقي إلى أن عدت من البعثة بعد حصولي على الدكتوراه من جامعة لندن في سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وتم تعييني مدرسا بقسم الرياضة البحتة بكلية العلوم جامعة القاهرة ، وبدأت اكتب مقالاتي في الأدب في صفحة يوم الأحد بصحيفة المصري ، واذكر أنني

كتبت مقالا عن «الأدب الواقعي» تعرضت فيه بشكل جانبي لقصص إحسان ورأيي السلبي فيها . وإذا بأحد الأصدقاء من العاملين مع إحسان في روزاليوسف يتصل بي تليفونيا ويبلغني بأنه يريد أن يراني ، فلما ذهبت إليه في مكتبه فوجئت به يعرض عليّ الكتابة بانتظام في روزاليوسف . وهكذا بدأت صلتي من جديد بإحسان وبالمجلة ، وظللت أكتب فيها حتى نهايات عام ١٩٥٤ وأذكر أنني قمت بتحرير باب «أدب» في المجلة بعد انتقال فتحي غانم إلى أخبار اليوم .

موقف لن أنساه :

لكن حدث في نهايات عام ١٩٥٤ أن أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بفصل ٤٢ من أساتذة الجامعات الذين عارضوا النظام بسبب قضية الديمقراطية ، وكنت واحدا من المفصولين ووجدت نفسي بلا عمل فجأة وأنا صاحب أسرة ، ولم يمض وقت طويل حتى عرضت عليّ وظيفة مدرس بإحدى كليات جامعة لندن فقبلتها على الفور وسافرت إلى بريطانيا .. ومن هناك أخذت أرسل مقالات في قضايا ثقافية فيقوم إحسان

بنشرها في المجلة مع أنه يعلم أنني من المغضوب عليهم من جانب السلطة .. وفي أحد الأيام وصلني منه خطاب يقول فيه إنه حزين لأنني أعمل في خدمة جامعة بريطانية بينما تحتاج مصر إلى من هم مثلي ، ورددت عليه قائلا إنني سأكون أسعد إنسان إذا استطاع أن يدبر لي أي عمل في مصر .. وبعد وصول خطابي كتب إحسان مقالا طويلا في روز اليوسف عنوانه (الرجل الذي سرقه الانجليز) قال فيه عني كلاما طيبا قد لا استحقه ودعا الحكومة إلى إعادتي إلى جامعة القاهرة .

وبعد نشر المقال بأيام كان إحسان في طريقه إلى باندونج في صحبة جمال عبدالناصر ، الذي سأله عن المقال وعني فشرح إحسان وجهة نظره بالكامل . لكن عبدالناصر ختم حديثه قائلا : إن الشيوعيين يضحكون عليك ويستخدمونك يا إحسان ! وبقيت في بريطانيا حتى أعلن عبدالناصر تأميم القناة في يوليو سنة ١٩٥٦ فقدمت استقالتي على الفور من الجامعة وقررت العودة إلى مصر، وكان إحسان واحدا من

أسعد الناس لعودتي وتوثقت صلتنا من جديد خصوصا أنني بدأت أعمل في صحيفة «المساء» بالقاهرة كمحرر للشئون العربية وأصبحت متفرغا للعمل الصحفي .

ولعل هذه الوقائع التي سردتها توضح كيف كان إحسان مستنيرا واسع الأفق وشجاعا في الوقت نفسه في الدفاع عن رجل لا يشاركه قناعاته السياسية . وثمة مثال آخر يوضح كيف كان واسع الأفق حتى عندما يتعلق الأمر بإنتاجه الأدبي: أذكر مرة أنني دعيت للاشتراك في ندوة بالإذاعة بالبرنامج الثاني في عام ١٩٥٧ لمناقشة قصته (الطريق المسدود) وكان زميلاي في الندوة هما إحسان وكامل الشناوي . وكنت قد أعددت ملاحظاتي النقدية لكي استفيد منها في الندوة لكني أحسست بأن كامل الشناوي قد استهلك وقت الندوة كله فلم يدع لي فرصة لتوضيح وجهة نظري وهكذا كتبت مقالا عن القصة ونشرته في صفحة الأدب بصحيفة المساء وكان هذا المقال هو الوحيد الذي نشرته في النقد الأدبي إبان عملي في المساء وكان مقالا قاسيا شديد

الوطأة على أدب إحسان كله ، وهاجت السيدة روزاليوسف وماجت عند نشر المقال ، وشتمت كل المحررين اليساريين الذين كانوا يعملون في روزاليوسف آنذاك مع أنهم لا ذنب لهم فيما نشرته أنا من آراء، لكن إحسانا ظل على صداقته لي ولم يفاتحني في كلمة مما نشرت .

ولقد ظلت سنوات عملي في صحيفة «المساء» هي أيضا سنوات ارتباطي الوثيق بإحسان وكامل الشناوى وكنا عادة نلتقي مساء كل يوم خميس في صحيفة الجمهورية في مكتب كامل الشناوى وننتظر حتى تصدر الطبعة الأولى من جريدة الجمهورية ثم نخرج نحن الثلاثة للسهر حتى الصباح تقريبا في فندق مصر الجديدة ، وكان يشاركنا هذه السهرات أحمد بهاء الدين أو فتحى غانم أحيانا . وعندما رشحت نفسي في يوليو ١٩٥٧ للانتخابات النيابية عن الدائرة السادسة (الوايلي والعباسية) لم يتردد إحسان هو وكامل الشناوى في التوقيع على بيان الكتاب والفنانين الذى دعا الشعب إلى انتخابي ، هذا رغم علمهم أن بعض أجهزة السلطة في مصر لم تكن راضية عن ترشيحي وكانت تسعى سرا وعلنا إلى إسقاطي

فقد كنت مرشح اليسار الوحيد في هذه الانتخابات وكان نجاحي سابقة لها ما بعدها .

في أول يناير ١٩٥٩ بدأت الحملة الأمنية ضد قوى اليسار في مصر ، واعتقل أكثر من مائتين في اليوم الأول كنت واحدا منهم ، وكان الخلاف قد بدأ حول قضية الوحدة مع سوريا وشكلها وقضية الديمقراطية ثم تداعت الأحداث إلى حملة معادية للشيوعية استمرت سنوات .

وبقيت في معتقلات مصر خمس سنوات وثلاثة شهور ، هذا على الرغم من أنني قدمت للمحاكمة أمام مجلس عسكرى في نوفمبر سنة ١٩٥٩ وأصدر المجلس حكما ببراءتي :

وعندمـــا أفـــرج عني في أبريل سنة ١٩٦٤ اتصل بي إحسان عبدالقدوس ودعاني إلى الكتابة في روزاليوسف وبالفعل عدت للكتابة من جديد فيها إلى أن انتقل الاستاذ أحمد بهاء الدين إلى دار الهلال فانتقلت إلى الكتابة في مجلة المصور معه .

ولقد ترددت كثيرا على منزله في الستينيات ومازلت أذكر لقاءنا مع جيفارا في منزله الحالي في الزمالك ، والنقاش

الذي دار آنذاك حتى الصباح تقريبا وفي هذه اللقاءات كنا نتفق ونختلف ولم يؤثر الاتفاق أو الخلاف على مودتنا المتبادلة.

إلا أن الأيام باعدت بيننا بعد ذلك ، فقد توفيت زوجتي عام ١٩٧٥ وبدأت أسافر كثيرا ، فقضيت في بريطانيا أكثر من عامين ونصف استاذا زائرا في السبعينيات وعملت مع الأمم المتحدة بالكويت أربع سنوات بين أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ولم التق مع إحسان طوال هذه السنوات ، لكني كنت حريصا دائما على أن أبعث له تحياتي وتمنياتي له بالصحة والعافية كلما قابلت نجله الأكبر محمد ولاشك في أن مرضه في السنين الأخيرة قد أثر على اتصالاته بأصدقائه القدامى ، كما أن للشيخوخة أحكاما!

وعندما ذهبت للمشاركة في تشييع جنازته أحسست انني أحمل على ظهري ذكريات خمسين عاما من النضال والاتفاق والخلاف. ولم استطع أن اكتم دموعي ونحن نودعه الوداع الأخير!



مرت عشرون عاما على هذا اللقاء بالثائر الكوبي جيفارا عندما التقينا بالقاهرة في منزل الصديق إحسان عبدالقدوس.

كان جيفارا عائدا من الجزائر بعد حضوره مؤتمر القارات الثلاث وطيرت وكالات الأنباء أجزاء من خطابه في المؤتمر، وفيه ينتقد شروط معونة الدول الاشتراكية للدول النامية مما بدا غريبا علينا، وكانت وجهة نظره فيما يبدو أن الدول الاشتراكية يجب أن تكون أكثر كرما وسخاء في معونتها إذا أريد لهذه الدول النامية أن تبقى الاشتراكية على أرضها، وكان جيفارا يتكلم كوزير للصناعة في كوبا عاصر مشكلات البناء الاشتراكي واكتوى بلهيبها.

وعندما دق جرس التليفون في منزلي وأخبرني إحسان عبدالقدوس بدعوتي للعشاء في منزله وحضوره الحفل الكبير الذي أقامه على شرف الثائر الكوبي جيفارا شعرت بسعادة كبيرة فقد حانت إذن فرصة اللقاء مع هذا الثائر الكبير والنقاش معه.

ولقد دعي إلى هذا العشاء كثيرون من كبار صحفيي مصر ومثقفيها وفنانيها أذكر من بينهم «خالد محيي الدين» وزوجته

وأحمد بهاء الدين وزوجته وأحمد حمروش وزوجته وموسى صبرى وزوجته ونجمة الشاشة المصرية فاتن حمامة وآخرين كثيرين لا أذكرهم الآن وإن كنت أتذكر وجود فؤاد الركابى وزير الشئون البلدية العراقى فى هذا الحفل الكبير .

ومازلت أذكر حتى الآن أن كثيرا من السيدات اللاتى حضرن هذا الحفل تجمعن حول فاتن حمامة يناقشنها فى فيلمها الجديد آنذاك «الحرام» لقصة الكاتب الكبير يوسف ادريس . وفيما أذكر كان لكثير منهن ملاحظات نقدية على الفيلم وعلى بعض مشاهده وبعض تقنيات اخراجه . ومع أنى لا أتذكر اليوم تفاصيل هذه المناقشات إلا أننى لازلت أذكر الدفاع الحار لفاتن حمامة عن الفيلم وسخونة الحوار بينها وبين عدد من سيدات الحفل . وأتذكر أيضا أننى كنت أحس بحسرة لعدم حضور زوجتى الصحفية عايدة ثابت هذه المناسبة ، فقد كانت مريضة بمستشفى دار الشفاء تحت ملاحظة الأطباء بسبب متاعب الحمل لابنتنا حنان التى ولدت بعد هذه المناسبة بخمسة شهور .

بعد العشاء انتقل معظم الرجال إلى غرفة مكتب إحسان وأبديت لجيفارا رغبتي في إجراء حوار معه حول عدد من القضايا السياسية والاقتصادية ورحب على الفور بذلك ، وهكذا تحلق حول هذا النقاش عدد محدود من الأصدقاء المهتمين بهذه القضايا ينصتون وبعضهم يترجم أو يتدخل في النقاش مستفسرا عن جزئية هنا أو هناك .

كان جيفارا يتحدث بالفرنسية التي يجيدها وكنت أتحدث بالانجليزية التي أجيدها ، وكان السفير الكوبي الذي يجيد اللغتين وأحيانا الصديق أحمد بهاء الدين يتولى الترجمة من الفرنسية إلى الانجليزية أو العكس .

ولقد استمر النقاش حتى الثانية صباحا ، وفتحت موضوعات كثيرة وإن لم تقفل كلها برأى نهائي أو باتفاق في وجهات النظر . وكانت القضية الأساسية التي تشغلني آنذاك هي : كيف تستطيع دولة صغيرة ذات موارد محدودة مثل كوبا أن تبني الاشتراكية وماهي المصاعب التي تواجهها في

البناء الاشتراكي، وكيف تواجه كوبا مشاكل الإنتاج والاستهلاك ثم قضية معونات الدول الاشتراكية التي كانت محل نقده في خطابه في مؤتمر القارات الثلاث بالجزائر، وكنت في هذه الاسئلة التي اطرحها أمام جيفارا أتحدث وعيني على مصر وتساؤلات عديدة تدور في خاطري حول ما يجري في مصر من مشاكل مشابهة في ظل مناخ عام يتحدث عن بناء الاشتراكية بمصر في مواجهة مصاعب ضخمة خارجية وداخلية ، وفي ظل شكوك كثيرة تراودني وتراود الكثيرين من أمثالي حول إمكانية تحقيق هذا الهدف العظيم في ظل الظروف السياسية الداخلية وعلاقات القوى الاجتماعية القائمة .

أما القضية الثانية التي كانت تشغلني فهي : موضوع المواجهة بين الامبريالية الامريكية وكوبا التي لا تبعد عن شواطيء أمريكا بأكثر من تسعين ميلا ، صحيح أن المواجهة بين خروشوف وكيندي حول قضية الصواريخ عام ١٩٦٢

انتهت إلى التزام الولايات المتحدة باحترام استقلال كوبا ، ولكن إلى متى سوف تحترم أمريكا استقلال كوبا وهى معزولة وسط بلدان امريكا اللاتينية التى تدين معظمها بالولاء للولايات المتحدة ؟

ولقد استفاض جيفارا فى ردوده على كل هذه الاسئلة .. وقال فيما يتعلق بقضية التطبيق الاشتراكى لدولة صغيرة مثل كوبا إنها مشكلة حقا وإن مشكلة التطبيق الاشتراكى فى دولة مترامية الأطراف مثل الاتحاد السوفييتى هى مشكلة خاصة وتختلف تماما عن قضية التطبيق الاشتراكى فى دولة نامية صغيرة مثل كوبا وقال إنهم فى حماسهم للحل الاشتراكى اندفعوا إلى بناء المصانع وتغيير نمط الزراعة الكوبية دون تفكير وتخطيط صحيح طويل المدى وانهم وضعوا خطتهم الأولى على أساس أن تكون لمشروعات الإنتاج ٧٠٪ ولمشروعات الخدمات ٣٠٪ من الاستثمارات وبعد ثلاث سنوات اكتشفوا أنهم نفذوا ٧٠٪ من مشروعات الخدمات ،

٣٠٪ من مشروعات الإنتاج وقال جيفارا إن تلك مشكلة كبيرة لشعوب الدول النامية التى فى أمس الحاجة إلى الخدمات بعد حرمان طويل .

وقال جيفارا إنهم كانوا يحاكون تجربة تشيكوسلوفاكيا فى بناء الاشتراكية . وعندما سئل : لماذا تشيكوسلوفاكيا بالذات؟ قال إنه ليس هناك سبب محدد سوى أن هذا البلد أرسل لنا تفصيلات عن تجربته وكنا فى لهفة على العمل الجاد فبدأنا نعمل دون تخطيط سليم ثم أخذنا بعد سنوات نصحح أخطاءنا وقال جيفارا إن العالم الرأسمالى قد تغير كثيرا عما كان عليه الوضع أيام ماركس وإن ماركس على أى حال لم يضع حلولا لقضايا التطبيق الاشتراكى، فإذا كان العالم قد تغير كثيرا عن أيام ماركس فلابد من إعادة النظر فى مقولات ماركسية عديدة وخاصة فيما يتعلق بقضية التطبيق الاشتراكى للدول النامية والصغيرة وقال إن الدول الاشتراكية الأوربية التى بنت الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية قد حذت حذو النموذج السوفييتى ولم يكن لدى أحد الشجاعة الكافية ليناقش ويعارض على أساس عدم الملاءمة .

وكان من رأى جيفارا أنه لابد من إعادة النظر فى مفهوم الربح في النظام الاشتراكي وفكرة الحافز وعديد من المفاهيم الأخرى ، وقال إنه لا يزعم أن لديه حلولا للمشاكل والأسئلة التي يثيرها وإن كان يريد أن يقول إنه لابد من دراسة عميقة تواجه مشاكل التطبيق الاشتراكي في الدول المتخلفة . ولقد عاب جيفارا على الدول الاشتراكية المتطورة علاقاتها التجارية مع الدول النامية والتي تقوم على أساس الأسعار الدولية فى السوق الرأسمالية في شراء المواد الخام .

أما فيما يتعلق بمستقبل العلاقات بين كوبا وأمريكا على ضوء عزلة كوبا فى محيطها بأمريكا اللاتينية فقد بدا جيفارا غير متحمس لمناقشة هذه القضية بمثل حماسه في الاجابة على اسئلتنا عن التطبيق الاشتراكي ، وقال كلاما عاما مقتضبا ، الأمر الذى أثار دهشتى آنذاك .

ولكن عندما انبعث أنباء مصرع جيفارا في بوليفيا فى معارك حرب العصابات هناك عام ١٩٦٧ وعندما وصلتنى نسخة من كتاب «ثورة في الثورة» لريجى دوبريه ، أخذت أتساءل بيني وبين نفسي إن كان جيفارا عند لقائنا في منزل

إحسان عبدالقدوس كان قد وصل إلي قناعات بترك كوبا والذهاب إلي بوليفيا لقيادة حرب العصابات هناك ، وإن هذا هو طريق تأمين التجربة الاشتراكية في كوبا وما إذا كان هذا الاقتضاب في الاجابة علي اسئلتي شيئا مقصودا ، بل وما إذا كانت الظروف الخاصة جدا التي أحاطت بنجاح ثورة كوبا قد جنت علي فكر هذا الثائر الرومانسي الكبير ، وأغرته بمحاكاة هذه التجربة في الثورة في ظروف بلدان لاتينية أخري تختلف عن ظروف كوبا الخاصة .

وأخيرا ملحوظة خاصة ..

فقد يتساءل بعض القراء كيف استطاعت ذاكرتي أن تستوعب كل تفاصيل هذا اللقاء بعد عشرين عاما من وقوعه ولهؤلاء القراء أجيب علي هذا السؤال المشروع بأن ذاكرتي لاتزال قوية نسبيا فيما يتعلق بالأحداث الهامة التي عشتها ، فضلا عن أنني استعنت بمقال ممتاز للاستاذ موسي صبري - نعم الأستاذ موسي صبري - كان قد كتبه في عدد ١٧ مارس ١٩٦٥ من مجلة آخر ساعة عن هذا اللقاء الذي كان أحد حضوره .

للذكــرى

منذ أيام مضت ذكراه السادسة عشرة ، وكان قد رحل فجأة وهو في قمة حيويته ونشاطه الاكاديمي ، ووقع على خبر رحيله وقوع الصاعقة ، كنت يومها استاذا زائرا لجامعة لانكاستر في الشمال الغربي لبريطانيا استعد للعودة إلى القاهرة أنا وابنتي الصغيرة حنان التي قضت العام الدراسي كله معي في بريطانيا ، وكانت ترتيباتنا هي أن نذهب بالسيارة إلى فرنسا وايطاليا وأن نقضي شهر يوليو كله هناك حتى نصل إلى نابولي ، ثم نأخذ المركب إلى الاسكندرية من هناك .

وفي صباح يوم تلكأت فيه بالمنزل دق جرس الهاتف ، وكان المتحدث يتصل بي من روما ليعزيني في المصاب عندما قرأ نبأ الحادث الذي أدى إلى الوفاة في الصفحة الأولى من الأهرام ثم النعي في صفحة الوفيات ، واشتد حرج هذا الصديق المتحدث من روما عندما أدرك أنني لم أكن على علم بالخبر !

وبسرعة اتصلت بأشقائي في القاهرة هاتفيا فأكدوا لي صحة الخبر عن الحادث الذي وقع في اليوم السابق ، وسابقت الزمن لأخذ أول طائرة إلى القاهرة ، لكنني عندما وصلت كانوا قد واروه التراب وعادوا ، وكانوا قد تقبلوا فيه العزاء وانتهى الأمر .

إنني أتحدث عن شقيقي الأكبر المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس الذي كان عميدا لكلية دار العلوم مرتين وعضوا بمجمع اللغة العربية لمدة عشرين عاما ، وصاحب كرسي «فقه اللغة» بجامعة القاهرة وهو الرجل الذي كان له الفضل الأكبر في تربيتي المدرسية ورعايتي حتى تخرجت في الجامعة . وكان فارق السن بيننا كبيرا ، ربما يزيد على سبعة عشر عاما . فعندما تخرج في دار العلوم عام ١٩٣٠ واشتغل بالتدريس كنت في السابعة أستعد لدخول المدرسة الابتدائية . وسافر هو بعد ذلك إلى بريطانيا في بعثة حكومية للحصول على الدكتوراه ، فكان يرسل لي الخطابات المشجعة على مدرسة الحسينية الابتدائية ثم على مدرسة فؤاد الأول الثانوية بعد

ذلك . وهو بلاشك صاحب الفضل في توجيهي لدخول «شعبة الرياضيات» في السنة التوجيهية ومنها إلى قسم الرياضيات بكلية العلوم . وكان يعرف بالطبع اهتماماتي الأدبية والفلسفية ، كما كان يعرف محبتي للرياضيات ، وكان يقول لي دائما : « إنك تستطيع أن تواصل اهتماماتك الأدبية والفلسفية وحدك بالقراءة المثابرة ، لكنك لا تستطيع ذلك في الرياضيات» ثم يضحك ويقول : « يا بني الأدب لا يطعم أحدا هذه الأيام» ولم أندم على قبول نصيحته أبدا ، وظل إبراهيم أنيس بالنسبة لي أبا روحيا وبالتأكيد تفرقت بنا السبل عندما كبرنا واهتممت أنا بالعمل السياسي الذي كان قد فقد الاهتمام به منذ أن كان طالبا وفديا وشاعرا يلقي قصائده أمام سعد زغلول في بيت الأمة ، ثم أمام مصطفى النحاس من بعده ، لكنه ظل في مكانة الوالد بالنسبة لي..

ولن أخجل من أن أقول إنه أحد أبرز حراس اللغة العربية في العصر الحديث باعتباره لغويا رائدا أحدث ثورة حقيقية في علم فقه اللغة بدءا من دراسة للهجة أهل القاهرة وانتهاء

بجهوده فى استخدام الكمبيوتر فى إحصاء تكرارات الحروف العربية .

ولا شك في أنه يحسب له أنه أول من بشر بالمناهج العصرية في دراسة أصوات اللغة مستعينا بالأجهزة الصوتية الحديثة ، وأثمر هذا كله كتاب الرائد «الأصوات اللغوية» ، وبعد ذلك صدرت له المؤلفات الآتية على التوالى - من أسرار اللغة العربية ، موسيقى الشعر ، في اللهجات العربية ، دلالة الألفاظ ، وهو الكتاب الذى حصل به على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٧ ، مستقبل اللغة العربية المشتركة ، اللغة بين القومية والعالمية ، طرق تنمية ألفاظ اللغة (مجموعة محاضرات) .

كما كان له أربع مسرحيات منشورة وهى .

١ - العجوز المتصابى وقد كتبها خلال دراسته بكلية دار العلوم وأشرف على تمثيلها فى مسرح الأزبكية .

٢ - ايناس أو ضحية المجتمع .

٣ - المنصور بن عامر الاندلسى .

٤ - المتنبي في مجلس سيف الدولة .

وقد نالت جهوده المتميزة في خدمة اللغة التقدير لا على نطاق العالم العربي وحده وإنما على النطاق الدولي أيضا . وكانت هذه الحقيقة وراء اختياره في مقدمة اللغويين الذين يؤرخ لحياتهم في (معجم اللغويين العالميين) الذي تصدره جامعة «انديانا» بالولايات المتحدة .

وإبراهيم أنيس ليس في الحقيقة غريبا على الكويت ، فهناك العديد من تلاميذه الكويتيين أيام دار العلوم ، وهم يشغلون اليوم المناصب المرموقة في الجامعة ووزارة التربية والتعليم أو في الصحافة الكويتية ، وفضلا عن ذلك فقد دعته جامعة الكويت لمدة شهر استاذا زائرا حيث ألقى عددا من المحاضرات واستخدم الحاسب الآلي للجامعة في متابعة أبحاثه اللغوية ، وعاد من هذه الزيارة بأجمل الذكريات التي حدثني عنها ولم أكن آنذاك (في أوائل السبعينيات فيما أذكر) قد زرت الكويت ولا عرفت أحدا من أهلها .

في يوم ٨ يونيــو من عــام ١٩٧٧ خــرج إبراهيم أنيس كعادته كل مساء يمارس رياضة المشي ساعة من الزمان ، وهو الرجل الذي يجلس إلى مكتبه في صومعته بالمنزل ساعات طوالا بلا ملل ، وإذا بطالب ليبي مستهتر يصدمه بسيارته وهو يحاول عبور الطريق .

ونقل إبراهيم أنيس إلى مستشفى العجوزة القريب دون أن يعرف أحد من هو ، ووجد البوليس في جيبه ورقة صغيرة واحدة بها رقم هاتف ، واتصل البوليس بصاحب الرقم الذي تبين أنه الدكتور كمال بشر عميد دار العلوم آنذاك ، وحضر الرجل وتعرف على الجثمان ، وأبلغ عائلته تليفونيا بالمصاب ، وفي اليوم التالي اتصل بي من روما هذا الصديق الذي ظن أنني على علم بالخبر ، وحاولت أن اشترك في وداعه الأخير فلم افلح !

تحية حب وتقدير وعرفان بفضله في ذكراه السادسة عشرة.

ذكريات مع علي مصطفى مشرفة

فى الذكرى المئوية لميلاده

دخلت كلية العلـــوم بجامـعة القـاهرة في أكـتـوبر سنة ١٩٤٠ وتخرجت فيها في يونيو سنة ١٩٤٤ . وفي السنوات الثـلاث الأولــي والشــهـر الأول من السـنـة الرابعـة لم يكن هناك أي اتصــال شـخـصي بيني وبين عـمـيد الكلية ، ورئيس قسم الرياضـة التطبيـقيـة الاسـتـاذ الدكـتور علي مصطفى مشرفة .

كنت أحـضـر بالطبع مـحـاضـراته في السنة الثـانيـة وفي السنة الرابعة ، وكان آنذاك يحاضر فى علم الاستاتيكا في السنة الثانية ، ويحاضر في النظرية الكهربائية المغناطيسية الضـــوء والبـصــريات فى السنة الرابعـة . وكنا نحن طلاب الرياضيات ننظر إليه باحترام ومهابة شديدين، وكانت تنتشر في أوسـاطنا نحن الطلاب أسطورة أن من يفـهـمـون النظرية النسبية لاينشتين فى العالم عشرة بينهم واحد مصرى .. هو علي مصطفي مشرفة .

ثم وقع حدث طلابي في أوائل السنة الرابعة جعلني على اتصال شخصي به طوال العام. هذا الحدث هو انتخابات الجمعية الرياضية الطبيعية لطلاب وأقسام الرياضيات والفيزياء التي تجري كل عام وينتخب فيها طلاب كل صف من الصفوف الأربعة اثنين من الطلاب في مجلس إدارة الجمعية لذلك العام ، وقد رشحت نفسي عن السنة الرابعة فانتخبني زملائي ثم اجتمع مجلس الإدارة الجديد ، وأكرمني زملائي فانتخبوني رئيسا لمجلس الإدارة عن العام الدراسي سنة ٤٣ - ١٩٤٤ .

وبعد انتخابي رئيسا للجمعية بدأت في إعداد البرنامج الثقافي للجمعية ، أي سلسلة المحاضرات التي سيلقيها مختصون في موضوعات رياضية وفيزيائية عامة تثير اهتمام الطلاب ، وحرصت بالطبع على أن أضع في مشروع البرنامج محاضرة عن النظرية النسبية يلقيها علي مصطفى مشرفة ، وعندما عرضت عليه الاقتراح لم يعارض وإن كان قد طلب تأخير موعدها .

وبالطبع ظللت على اتصال به طوال العام . وضمتنا ذكريات عديدة جميلة عن هذه الفترة سوف أقص هنا بثلاث منها مازالت محفورة في ذهني .

- الذكرى الأولى تتعلق بطالب اسمه صالح كان زميلا لنا في السنة الرابعة وإن تخصص في الفيزياء ، وقد صار عميدا لكلية العلوم بالاسكندرية في الستينيات .

جاءني صالح في أحد الأيام واقترح على أن يكون ضمن البرنامج الثقافي للجمعية محاضرة له في الفيزياء ، ورفضت طلبه على أساس أن طالبا مثلنا لن يفيدنا بشئ جديد ، ولو فتحنا هذا الباب ، باب أن يقوم الطلاب بإلقاء محاضرات في الجمعية فلن نقدم للطلاب جديدا ، ولم يقتنع صالح فذهب إلى عميد الكلية شاكيا موقفي .

أتذكر أن ساعي العميد جاء يبحث عني وعندما وجدني قال لي « الباشا يريدك على الفور » وذهبت إلى غرفة العميد ألهث من الجري ، وعندما دخلت ولاحظ حالتي قام من مكتبه

وأخذ كرسيا ، ووضعه بجوار النافذة التى فتحها على الفور ، وقال : « نتكلم عندما تهدأ وتلتقط أنفاسك» .

وبعد خمس دقائق جاء وجلس على كرسي آخر بجوارى وقال لي «هل يرضيك أن يجلس الاساتذة فى الأتوبيس ، بينما الطلاب واقفون » وكان بطبعه يهوى الحديث بمثل هذه التشبيهات والاستعارات ، ورغم أننى لم أفهم القصد من وراء هذا الكلام ، إلا أننى رددت على الفور : إن هذا وضع طبيعى إذ على الطلاب أن يقفوا فى الأوتوبيس احتراما لأساتذتهم ، فضلا عن أنهم أقدر على الوقوف لصغر سنهم .

ضحك العميد ضحكته المعهودة وقال : غلبتنى ! وتكلم فورا عن شكوى الطالب صالح وشرحت له وجهة نظرى التى وافق عليها مجلس إدارة الجمعية . لكنه قال : يا سيدى علشان خاطرى اعطوه فرصة . ووافقت طبعا لا اقتناعا وإنما احتراما لرغبة العميد .

- الذكرى الثانية تتعلق بمحاضرته عن النظرية النسبية ، إذ بدأت أتساءل : من الذي سيقدم العميد فى هذه المحاضرة

وقررت أن من الأنسب أن يقدمه واحد من الأساتذة وذهبت إليه مقترحا أن يتولى تقديمه أستاذنا د. محمد مرسي أحمد رئيس قسم الرياضة البحتة الذى كان له مودة خاصة فى قلبي ، لكن العميد رفض وقال : أنت رئيس الجمعية وأنت الذى تقدمني للحضور . وبالطبع كنت خجلا من تقديمه . لكنه صمم على ذلك وفعلت ما طلبه ، وأتذكر أن مدرج قسم الفيزياء حيث ألقيت المحاضرة كانت مليئا بالحاضرين من داخل الكلية وخارجها ، وأن القضايا التى أثارتها هذه المحاضرة كانت ذات أثر كبير على الحاضرين وطال زمن المحاضرة والاسئلة إلى نحو ثلاث ساعات ، وهو أمر نادر الحدوث في برنامج المحاضرات .

– أما الذكرى الثالثة فتتعلق بالصورة التذكارية التى كانت تؤخذ فى أواخر العام الدراسى لمجلس إدارة الجمعية مع رئيس شرف الجمعية والمستشارين ، ولا تزال هذه الصورة فى غرفة مكتبي بالمنزل حتى الآن .

والعادة أن هناك من يجلسون على دكة أعدت لهذه المناسبة ، وهناك من يقفون وراءهم . وقررنا نحن الطلاب أن

الأساتذة هم الذين يجلسون بينما نقف نحن الطلاب وراءهم . لكن علي مصطفى مشرفة كان له رأي آخر إذ صمم على أن أجلس على الدكة في وسط الصورة ويجلس الاساتذة على الجانبين . وكنت في أشد حالات الخجل وحاولت جاهدا أن أقف مع زملائي الطلاب في الصف الخلفي . لكنه صمم على رأيه وقال ضاحكا : أنت رئيس الجمعية وتستحق أن تكون مركز الصورة . وهذا ما كان فعلا .

ولم أر علي مصطفى مشرفة بعد تخرجي وتعييني معيدا في جامعة الاسكندرية . ولكن ذكراه ظلت عزيزة إلى قلبي ، غالية في نفسي . وأتذكر أنني عندما عملت رئيسا لشركة الكاتب العربي للطباعة والنشر عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كان كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي الذي قام بتحقيقه علي مصطفى مشرفة ، ومحمد مرسي أحمد ضمن كتب الدار التي أعيد طبعها.

الباب الثالث

المثقفون والسلطة

في أوردي أبو زعبل

رسالة إلى زوجتي

زوجتي الحبيبة: ها أنذا أرسل لك هذه الرسالة بعد غيبة طويلة منذ أن أرسلت لك خطابي خلال المحاكمة أيام المجلس العسكري بالاسكندرية في أكتوبر الماضي، ولقد مضى على خطابي هذا نحو عشرة شهور اجتزنا فيها تجربة طالت وكأنها عشر سنوات! أعني تجربة الاوردي بما تعنيه من تعذيب يومي، وإهدار لآدمية المعتقلين، وعمل كالسخرة في جبل أبو زعبل، ثم قتل لعدد من زملائنا. إنها باختصار بما صنعته النازية في خصومها السياسيين في معتقلات أوروبا المشهورة، ولم يكن ينقصها لتصبح الصورة مطابقة تماما غير غرف الغاز!

لقد انتهت هذه التجربة الآن وعدنا إلى آدميتنا من جديد.. ولعلك أدركت من خلال زيارتك لي في الشهور الاخيرة مبلغ السوء الذي وصلت إليه حالتي الصحية. غير أني اليوم أسترد صحتي بالتدريج فلا تقلقي، ولكن ما يقض مضجعي حتى

اليوم أن شهدي عطية، بمصرعه الفاجع في الأوردي تحت سياط التعذيب، هو وحده الذي فدانا جميعا، ولولا مصرعه وما أثار من ضجة خارجية لاستمر التعذيب حتى اليوم ولاستطاب كثير من المسئولين هذه الحال ومن قبل قتلوا الدكتور فريد حداد ببساطة وكأنهم يؤدون عملا عاديا وهؤلاء القتلة معروفون ويعيشون بينكم لا يحذب أحدا منهم ضمير ولا تمتد إليه يد قانون!.

إن قتلة شهدي وفريد حداد هم اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون والعميد اسماعيل طلعت مدير سجن أبو زعبل، ثم أولا وأخيرا الضباط حسن منير وعبد اللطيف رشدي ويونس مرعي. هؤلاء الثلاثة هم الجلادون المباشرون. ولكني لا أشك أن وراء هؤلاء يقف رجال المباحث العامة بقيادة حسن المصيلحي وبعض رجال وزارة الداخلية ولست أستطيع أن أصدق أن المسئولين في مصر لم يكونوا يعرفون ما يجري في أبو زعبل خلال الفترة من نوفمبر سنة ١٩٥٩ إلى يونيو ١٩٦٠.

لا أدري كيف أبدأ في رواية القصة الإجرامية التي وقعت هنا. خلال هذه الفترة أرسلت لك عددا من الخطابات بمعرفة إدارة السجن ولعلك لاحظت أن كل خطاب لم يزد على ثلاثة سطور، أسأل فيها عن أحوالك وأحوال منى ووفاء وإخوتي وأطلب إرسال بعض النقود. لقد تعمدت هذا لأن الخطابات كتبت خلال أسوأ ظروف وإبان فترة التعذيب، ولم يكن لدي ما أقوله .. أو بمعنى أصح لم يكن ممكنا كتابة ما أريد أن أقوله!

* * *

لقد رحلنا من سجن مصر يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٩ .. ولا أدري إن كان لاختيار هذا التاريخ معنى خاص عند رجال المباحث. ولكني أعلم أن إعدادنا لما كان ينتظرنا في أوردي أبو زعبل قد بدأ ونحن واقفون في فناء سجن مصر ننتظر الترحيل. فقد أخذ مأمور سجن مصر شوقي القطشة في استفزازنا دون مبرر، وكسر بنفسه أشياء كثيرة من لوازمنا المتواضعة التي نحملها من سجن إلى سجن. وعندما وصلت العربة التي حشر فيها الواحد والستون إلى أوردي أبو زعبل

فوجئنا بفرقة من الخيالة على جيادهم، ثم صفين من الجنود يحملون العصى الغليظة على باب الأوردي وداخله وكانت التعليمات أن ينزل كل واحد منا بسرعة وأن يخلع ملابسه على باب الأوردي.. كل ملابسه حتى يصبح عاريا كما ولدته أمه، وأن يأخذ بسرعة برشا وبدلة سجن بيضاء ويهرع إلى العنبر. وكان أساس العملية هو المفاجأة الكاملة وشل الذهن عن التفكير حتى لا يجد إنسان فرصة ليحتج أو يناقش. وبطبيعة الحال لم يستطع معظم المعتقلين أن ينجزوا هذه المهمة في سرعة وكانت النتيجة أن قام الجنود بضربهم وهم عرايا - بالعصى الغليظة فضلا عن الإهانات اللفظية.

وكانت مهزلة وما أبشعها من مهزلة ومع ذلك فإن «حفلة الاستقبال» كما واجهناها لم تكن شيئا بالمقارنة بحفلة الاستقبال التي أعدت لدفعة شهدي عطية في يونيو الماضي، والتي مات فيها هذا الصديق العزيز.. فضلا عن الزملاء الآخرين الذين ظلوا في حالة خطرة لعدة أيام بعد ذلك. وفي اليوم التالي لوصولنا بدأ روتين الحياة المعدة لنا .. تقوم في

الصباح ونذهب ونحن حفاة في طابور إلى جبل أبو زعبل لتكسير الأحجار، ويستمر العمل حتى الظهر حيث نعود إلى الاوردي ويقفل العنبر علينا حتى صباح اليوم التالي. والطعام الذي يقدم لنا هو أسوأ ما يتصوره إنسان في حياته عسل أسود في الصباح، فول نابت في الظهر، ثم خضار لا طعم له وقطعة لحم تثير القرف في المساء. وخلال كل يوم تقريبا ينتقى عدد من المعتقلين لاستفزازهم وضربهم ضربا مبرحا ووضعهم في زنزانة انفرادية مغطاة بالماء البارد وبلا أغطية لمدة يومين أو ثلاثة، وكثيرا ما يفتح العنبر في الصباح أو بعد الظهر، وفجأة تدخل فرقة من الجنود بحجة تفتيش العنبر، وكان علينا أن ندير وجوهنا إلى الحائط أثناء التفتيش ثم في ختامه كان علينا أن نحني ظهورنا كأننا راكعون في صلاة ثم يدور كل واحد منا حول نفسه مرات ومرات حتى يأمر الضابط بالتوقف. وبالطبع خلال هذه العملية الهزلية يضرب الجنود عددا من المعتقلين كيفما اتفق، إنها عملية تثير الضحك وحتى الآن لم أفهم المقصود من هذه التعليمات.

كـان الجـو الظاهري أننا نعـيش في أبو زعـبل حـيـاة عسكرية، والجو الحقيقي المقصود هو التنكيل.. ومازلت أذكر أننا خـرجنا مـرة لطابور «رياضـة» وخـلال هذا الطابور طلب منا حسن منير أن نهتف باسم عبد الناصر وأن نغني أناشيد وطنية. فلما اعترض الدكتور اسماعيل صبري عبد الله قائلا إننا لا نفعل هذا بناء على أوامر انهالوا عليه بالعصي حتى فتحت رأسه! وبطبيعة الحال كان لابد أن يأتي دوري ودور محمود العالم! وفي المرة الاولى عندما رفعت صوتي مبديًا ملاحظات متواضعة على بعض ما يحدث، أخذت أنا وزميل آخر إلى الغرفة الانفرادية وبقينا هناك حتى جاء حسن منير منصور الاوردي، فإذا به يعيدنا إلى العنبر دون عقاب. وكان لهذا الموقف فرحـة وأية فرحة في كل العنبر. فقد بدا وكأنه نصر لنا! وفي المرة الثانية لاحتجاجي أخذنا إلى جبل أبو زعبل، وبدأ العـدوان عليّ بشكل مكثف على يد فـرقـة من الجنود يقودها الصول مطاوع، واستمر الحال على ذلك حتى أغمي علي من شدة الضرب، وحملني زملائي على أكتافهم

وأنــا في شــبــه غــيــبــوبة إلى العنبــر، ثم نقلت إلى غــرفــة «الملاحظــة الانفرادية» المخصصــة للمرضــى، وبقيت فيــها عشرة أيام بين الحيــاة والموت في الايــــام الاولى. ولقد كان من حسن حظى أن الطبيب الذى جاء لعيادتى كان زميلا لى في المدرسـة الثـانوية. وهـالتـه حـالتى فى اليـوم الأول حـتى اغـرورقت عـيناه بالدمــوع تأثــرا. وظل يواظب يومــيــا على التردد على مرتين ويحضر أدوية خاصة من عنده حتى اطمأن على حــالتى. ويطبــيــعــة الحــال لم تكن الإدارة تــدرى أن الطبــيب زمــيل ســابق لى فى الدراســة وأن هذا هـو مــصــدر اهتمامه الكبير بى. وأحيانا كثيرة أحس أننى مــدين بحياتى لهذا الرجل النبيل.

لن أطيل عليك أكــثــر من هــذا.. ســوى أن أقــول لك إن من مبررات هذه المعاملة الوحشيــة التى قيلت آنذاك على لسان بعض الضــبــاط هـو مــوقف الزمــلاء الجرئ أثناء المحــاكـمــة بالاسكندرية، فنحن كــمــجــموعة لم نخف انتقادنا السـيــاسى للحكومـة ولســيــاســة عــبــد الناصــر فى قــضــيــتى الوحــدة

والديمقراطية. ولكنني لا أستطيع قبول هذا التبرير بسهولة، لأن قضية شهدي عطية (وكان من المعروف أن زملاء هذه القضية على عكسنا لا يخفون تأييدهم شبه المطلق لسياسة عبد الناصر آنذاك) قد لقيت على باب الاوردي استقبالا أتعس بكثير من استقبالنا، وأن شهدي نفسه قد ضرب حتى الموت، ولقد كنا داخل عنابرنا عندما وصلت دفعة شهدي، وبطبيعة الحال لم نر شيئا يذكر بأعيننا، ولكننا سمعنا كل شيء؛ فقد كان المطلوب من كل واحد منهم أن يهتف بسقوط الشيوعية وأن ينكر اسمه بصوت عال، وأن يقول «أنا مره»... الخ وعندما رفض شهدي وآخرون كثيرون تنفيذ هذه التعليمات المخزية انهالوا على رأسه بالضرب حتى الموت. ويبدو أن موت شهدي كان مفاجأة لاسماعيل همت وحسن منير والآخرين.

وإذا بهمت يستقل سيارته ويمضي هاربا إلى القاهرة، وإذا بحسن منير يضع الجبس على ذراعه مدعيا أمام النيابة أن المعتقلين هجموا عليه وضربوه وكسروا ذراعه، وأنه هو وجنوده كانوا يدافعون عن أنفسهم. بعد وفاة شهدي وما

أحدثته من ضجة جاءت النيابة بأعداد كبيرة، وتولت التحقيق صباحا ومساء.. وفجأة تغير جو المعتقل تماما! وقد طلبت أنا والدكتور اسماعيل صبري عبد الله سماع أقوالنا في مقتل شهدي، وأجابت النيابة طلبنا. وكان منظرا مخزيا الضابط حسن منير عندما أتوا به لتقوم النيابة بتجربة التعرف على صوته وأنا داخل العنبر كما ذكرت في التحقيق، لقد رأيته كالفأر المتهالك، ولم يجرؤ على أن ينظر إلى، بل كان مطرقا رأسه إلى الارض طوال الوقت وقد وضعتني النيابة في غرفة مقفلة وطلبت منه ومن ضباط اخرين أن يرفعوا صوتهم بجمل من التي كانوا يقولونها للمعتقلين في حفلة الاستقبال، وفي كل مرة تعرفت على صوته في يسر دون أن أراه وبطبيعة الحال نقل حسن منير في اليوم التالي لوفاة شهدي حتى لايفتك به المعتقلون!.

ان الضجة التي حدثت عند وفاة شهدي كانت أمرا طبيعيا ولكن الغريب أن الدكتور فريد حداد قد قتل داخل الأوردي قبل شهدي بشهور ولم تحدث وفاته ضجة ما!

انك تذكريــن بالطبع الدكتور فريد حداد، هذا الطبيب الشهم الذى تولى علاجى وعلاجك وعلاج عمتك قبل اعتقالى أكثر من مرة. كم كان وديعا، طيب القلب عظيم الإنسانية! تستطيعين أن تتصـورى صدمتى عندما أخرجنا من العنبر ذات يوم عند الغروب لاستلام طعامنا ونحن نجرى كالعادة، ولمحت أمام الزنزانة الانفراديـــة رجلا فى ملابس السجن ملقى على الأرض، وهو يبدو فى حالة إغماء لم أتبيّـــن فى أول الامر من هـو هذا الانسان، وان كنت واثقا أننى أعرفه. ثم بدأت أعى أن هذا هو فريد حداد، ومع ذلك لم أتيقن آنذاك ان كـــان قد مات عندما رأيته أو أنه مغمى عليه فحسب. فلما سمعنـــا فى اليوم التالى أن أحد المعتقلين قد مات، كانت الصدمة بالنسبة لى فظيعة وبقيت فى حالة نفسية سيئة عدة أيـــام.. ولست أشك لحظـــة أن يونس مرعى هو المسئول عن قتل فريد حداد، فقد كان الضابط الوحيد الموجود بالاوردى

عصر ذلك اليوم، وقد سمعنا - نحن في العنبر - صوته وهو يعتدي بالضرب على قادم جديد لم نكن نعرف من هو؟.

إلى جانب هذا القتل والتعذيب ساءت أحوال المعتقلين الصحية وبسبب سوء التغذية، وكثيرون مرضوا وأوشكوا على الموت بسبب انتشار الامراض ولم يتحرك أحد رغم كل هذا، لقد عشنا في حالة مجاعة كاملة لمدة ثمانية شهور لا يعطونا الا ما يكفي للابقاء علينا على قيد الحياة فحسب.

أما مهانات العمل في جبل أبو زعبل فهي عديدة.. صفوة من مثقفي مصر مثل د. لويس عوض والدكتور عبد الرازق حسن، والكاتب المسرحي الفريد فرج، والرسام حسن فؤاد والناقد محمود أمين العالم، والدكتور فؤاد مرسي والدكتور فوزي منصور والدكتور اسماعيل صبري عبد الله.. الخ وغيرهم كثيرون يساقون كل يوم إلى الجبل حفاة شبه عراة في أقسى أيام الشتاء لكسر حجارة أبو زعبل

بالإضافة إلى عشرات من القادة النقابيين وقيادات الطلاب.

ومع ذلك يجب أن أقول إننا تعلمنا حرفة مفيدة، وإنني في نهاية الامر أجدت قطع الاحجار الى قطع صغيرة كما كان مطلوبا لرصف الشوارع، وكنت أحيانا أقول ضاحكا «صنعة في اليد أمان من الفقر»! أما الامر الثاني الذي أردت أن أذكره لك فهو تجربتي المثيرة في تدريس الرياضيات العالية الصديق محمد عباس سيد أحمد في ظل هذه الظروف السيئة ! لقد صمم محمد على اعطائه محاضرات داخل العنبر في موضوعات كنت أقوم بتدريسها لطلبة البكالوريوس في جامعة لندن في عامي ١٩٥٥ - ١٩٥٦. ولم تكن هناك سبورة أو طباشير أو ورق أو قلم وكان قد مضى على إعطائي هذه المحاضرات عامان على الاقل وكنت قد نسيت المعادلات والبراهين.... الخ ومع ذلك فقد كان لتصميمه وإلحاحه الفضل في بدء محاولات التذكر.

وقد ظللت أسابيع أتعثر في محاولات التذكر هذه، وفجأة بدأت خيوط الموضوع تعود، كأن شلة خيط كانت معقدة ثم حلت وانسابت الذاكرة صافية بكل تفاصيل البراهين كما كنت أعلمها للطلاب. ان العقل الانساني غريب في تخزينه للمعلومات وفي استرجاعها! والاغرب هو أن يتم ذلك في مثل هذه الظروف القاسية، ولقد كان الصديق محمد يخفي في ملابسه كل قطع الاحجار الطباشيرية التي يجدها بالجبل لنكتب بها على بلاط العنبر معادلات رياضية بالغة التعقيد ثم نمسحها بسرعة خوفا من أن نفاجأ بدخول الضباط أو الجنود إلى العنبر، وعندئذ قد يظنون أننا نكتب شفرة سرية؟

لقد انتهت هذه الرحلة .. بكل ما فيها من مهانات وتعذيب وأشياء قليلة إيجابية، وإذا كنت قد صممت على كتابتها لك فلكي تعرفي كيف وصل بنا الحال في مصر في معاملة المعتقلين السياسيين، وكيف كان على أنا وزملائي أن نتحمل

هذه التجربة البشعة في صبر وتماسك. وأحمد الله على أن كل هذا قد انتهى - وأرجو - إلى غير رجعة! ولكني أظل أفكر في شهدي وفريد كثيراً. وأفكر في زوجتيهما وأولادهما.. ما أعظمها من خسارة وما أروعه من مثل!

أقبلك وأضمك بقوة.

«كامل»

سبتمبر سنة ١٩٦٠

الرسالة عن كتاب د. عبد العظيم

«رسائل الحب والحزن والثورة»



في ذكرى زوجتي

هذا الكتاب ليس إلا مجموعة من الرسائل الحقيقية التي جرت بيني وبين زوجتي .. عايدة ثابت الصحفية المصرية، خلال فترة عصيبة من تاريخ مصر الحديث، وهي فترة كانت شديدة القسوة علينا نحن الاثنين.. إذ لم يكن قد مضى على زواجنا أكثر من شهرين عندما بدأت رياح العواصف العاتية!

أما الفترة فهي السنوات ١٩٥٩ - ١٩٦٤، وبالدقة من أول يناير سنة ١٩٥٩ إلى ٤ أبريل سنة ١٩٦٤.. بدأت باعتقالي كواحد من مئات الشيوعيين المصريين الذين اعتقلوا فجر أول يناير، وكنت قد تزوجت عايدة ثابت في ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٨ بعد قصة حب دامت عدة شهور قبل الزواج، وعشنا نحو شهرين من أسعد أيام حياتنا حتى فاجأتنا عاصفة الاعتقالات فوضعت حدا لكثير من أحلامنا وآمالنا..!!

فصلت عايدة ثابت من عملها في صحيفة «المساء» وإن لم تعتقل، كما فصلت أنا أيضا أثر اعتقالي .. وأصبحنا نحن الاثنان نواجه الحياة بلا مورد، أنا في المعتقل وهي في الخارج.

وقد يكون من الدقة أن أقول إن ما حدث لم يكن مفاجأة كاملة لنا بالمعنى المفهوم. كانت هناك نذر واضحة في الشهور الاخيرة عام ١٩٥٨ بتدهور الموقف السياسي العربي بعد الوحدة المصرية السورية، وتأزم العلاقات بين ثورة يوليو والاحزاب الشيوعية العربية. وكان الخلاف يدور اساسا حول قضية شكل الوحدة...

هل تكون اندماجية كما أراد حزب البعث السوري وجمال عبد الناصر. أم تكون فيدرالية يكون لكل قطر فيها حق تنظيم شئونه الداخلية وفق ظروفه الخاصة. وكانت القضية الاولى التي يدور حولها الصراع في هذا النطاق هي قضية الديمقراطية السياسية التي كانت تتمتع بها سوريا قبل الوحدة. وقد كان من الطبيعي أن يتمسك الحزب الشيوعي السوري بتجربته الديمقراطية السياسية التي عرفتها سوريا منذ سنة ١٩٥٤، وكان من الطبيعي أن يرفض الحزب حل نفسه، بينما تظاهر حزب البعث بحل نفسه ظنا منه أن مغانم الوحدة هي له وحده!

في ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أيضا أن تساند الأحزاب الشيوعية العربية موقف الحزب الشيوعي السوري، وأن يكون هذا هو موقف الشيوعيين المصريين كذلك.

لكن رغم بوادر العاصفة خلال عام ١٩٥٨ فقد كانت لدى ولدى غيري آمال في محاصرة النيران قبل أن ينفجر الموقف انفجارا يستحيل تدارك آثاره. وكان مصدر هذه الآمال ثقتي في وطنية نظام عبد الناصر وشعبيته، وانفجار ثورة تموز في العراق عام ١٩٥٨ التي اقتلعت كل دعائم النظام القديم ودمرته تدميرا، وموقف الاتحاد السوفييتي المناصر لثورة يوليو والعراق وقناعتي باستحالة استمرار نظام وطني في معاداة الامبريالية والقيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد الشيوعية في آن واحد وعشرات الاسباب الاخرى.

كل هذا ظل يمنحني الثقة بأن هناك آملا في رأب الصدع والعودة إلى علاقات التعاون التي كانت قائمة من قبل بين ثورة يوليو والاحزاب الشيوعية العربية، وبحكم عملي في

صحيفة «المساء» كمحرر الشئون العربية والخارجية فى الفترة ١٩٥٦ - ١٩٥٨ كنت على اتصال بكثير من أطراف الازمة، وعلى معرفة بكثير من أسرار هذه الفترة في المجال العربي، وحاولت كما حاول آخرون المساهمة فى حل الازمة على اساس مبدأ صحيح.

لكن يبدو أن القوى المصرية والعربية المحافظة التى كانت تعارض محاصرة الأزمة كانت أقوى منا بكثير، وكانت النتيجة تدهور الموقف خطوة بعد أخرى وخصوصا أثر محاكمة بعض الضباط الناصريين فى بغداد واعدامهم، وساعدت على هذا حالة الزهو التى ركبت القيادة السياسية فى مصر معتمدة على شعبية عبد الناصر عربيا - وهى شعبية لم يكن هناك شك فى قوتها مما أدى بها إلى اعتماد سياسة «وحدنا فى الميدان» التى بدأت بمحاولة تصفية الحزب الشيوعى السورى ثم امتدت بعد ذلك لتصفية حزب البعث السورى، ولكنها انتهت فى سبتمبر ١٩٦١ إلى تصفية نظام عبد الناصر فى سوريا!

ومن الامانة أن أقول إن الاخطاء السياسية التي تورط فيها الحزبان الشيوعيان في دمشق وبغداد آنذاك قد ساهمت في رأيي في الوصول بنا إلى هذه النهاية الفاجعة لأول وحدة عربية في العصر الحديث، وإن كانت المسئولية الاولى فيما حدث تقع في رأيي على أكتاف القيادة السياسية في مصر بما تورطت فيه هي من أخطاء سياسية وما تورطت فيه أجهزة أمنها من جرائم.

وليس بالصدفة أن الذين طعنوا الوحدة المصرية السورية الطعنة القاتلة في سبتمبر سنة ١٩٦١ كانوا «أصدقاء النظام» أعني الضباط السوريين الذين كانوا يعملون في مكتب المشير عامر في دمشق بقيادة النحلاوي مدير مكتبه. ولست أشك في أن هذا العمل قد تم لحساب الرأسماليين والإقطاعيين السوريين الذين هددتهم اجراءات يوليو سنة ١٩٦١، ولكن يظل السؤال الحيوي قائماً: كيف تم الانقلاب على الوحدة بهذه السهولة بل كيف انهار صرح الوحدة في دقائق؟ ان الاجابة على هذا السؤال لا تكتسب أهمية تاريخية

فحسب وانما ترتبط بمستقبل النضال من أجل الوحدة في المستقبل. وفي رأيي أن المفتاح الرئيسي في هذه الاجابة يتمثل في عداء نظام عبد الناصر للديمقراطية السياسية والجبهة الوطنية الذي أعطى أعداء الوحدة فرصتهم الذهبية.

لم يكن إذن ما حدث من اعتقالات في فجر أول يناير سنة ١٩٥٩ مفاجأة كاملة لي، وإن كان اتساعها وشمولها هو العنصر المفاجئ. وينبغي أن أعترف أنه حتى بعد وقوعها ظللت في الاسابيع الاولى ارجح أن الاعتقال لن يطول. وثبت خطأ هذا التقدير. وطال اعتقال الشيوعيين واليساريين المصريين، وامتد إلى ابريل سنة ١٩٦٤، أي انه طال خمس سنوات وثلاثة شهور!

وقد قضيت هذه الفترة الطويلة في عدة معتقلات مختلفة.. بدأت بمعتقل القلعة ثم معتقل الواحات الخارجة، ثم عدت إلى سجن مصر استعدادا للتقديم مع ستين آخرين إلى المحاكمة أمام مجلس عسكري يرأسه مدير سلاح المدفعية اللواء هلال عبد الله هلال في أكتوبر سنة ١٩٥٩

بالاسكندرية، وبعد المحاكمة عدنا من الاسكندرية إلى سجن مصر مرة أخرى، حيث نقلنا فى ٧ نوفمبر ١٩٥٩ إلى معتقل أوردى أبو زعبل.

وفى أوردى أبو زعبل جرت أول تجربة تعذيب جماعية على يد جهاز المباحث العامة وضباط مصلحة السجون.. وليس لدى شك فى أن هؤلاء الذين أشرفوا على هذه التجربة البربرية لابد أن يكونوا قد دربوا على يد بعض النازيين من الألمان، لأننى عندما زرت بقايا معتقل «بوخنفالد» فى ألمانيا عام ١٩٦٩ واستمعت إلى شرح الدليل وجدت تشابها غريبا بين ما كان يجرى فيه من أساليب تعذيب وبين ما جرى فى معتقل أوردى أبو زعبل!.. ولقد تولى قيادة هذا العمل الوحشى الذى سوف يرد وصفه فى صفحات الكتاب العميد حسن المصيلحى من جهاز المباحث العامة واللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون، وانتهت هذه التجربة بفاجعة قتل الصديق العزيز شهدى عطية فى يونيو سنة ١٩٦٠، وعندئذ تحركت الدولة لوقف التعذيب وإبعاد المسئولين

عن هذا العمل الاجرامي، ومع ذلك فلا يزال المسئولون عن قتل شهدي عطية ومن قبلــه الدكتور فريد حداد حتى الآن دون جزاء!

وبعد توقف سياسة التعذيب في الاوردي نقلنا في يوليو سنة ١٩٦١ إلى معتقل الواحات الخارجة، وبقينا هناك في ظروف معقولة نسبيا حتى أفرج عنا في ابريل سنة ١٩٦٤ إثر إلغاء الاحكام العرفية واقرار سياسة تصفية المعتقلات.

ومن الغريب أنني قدمت إلى المحاكمة أمام المجلس العسكري بتهمة الاتصال بالاحزاب الشيوعية العربية، مع ان هذا الاتصال كان معروفا للمسئولين طوال عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ـ باعتباري محررا للشئون العربية في صحيفة «المساء» كان الاتصال بقيادات هذه الاحزاب من صميم عملي، بل لقد نشرت اكثر من حديث صحفي في «المساء» مع قادة هذه الاحزاب، فلم يكن هناك اذن شئ خاف على المسئولين فيما يتعلق بهذا الاتصال، ومازلت أذكر أنني كلفت من قبل المسئولين في سفارتنا بالاردن وسوريا عام ١٩٥٧

بأعمال لم تكن من صميم عملي الصحفي ورضيت القيام بها عن طيب خاطر لانها كانت جزءا من صميم نشاط مصر التحرري في المجال العربي آنذاك.

وضمن ذكريات كثيرة مازلت أذكرها مثلا أن الاحزاب الوطنية في الاردن كانت قد دعت في مايو ١٩٥٧ إلى عقد مؤتمر وطني في نابلس لمواجهة السياسة الرجعية للملك حسين. وقد حاول الملك أن يمنع قادة هذه الاحزاب من الوصول إلى نابلس بكل السبل، ومن بينها محاصرة كل الطرق الخارجة من عمان بنقط حراسة عسكرية. وقد تصادف وجودي في عمان في هذه الفترة الحرجة، وإذ باللحق العسكري لسفارتنا - الاستاذ فؤاد هلال يرجوني أن أخرج في احدى سيارات السفارة ليلا ومعي بعض قادة الحزب الشيوعي والجبهة الوطنية متنكرين لانقلهم من عمان إلى القدس حيث يتولى القنصل المصري في القدس نقلهم من هناك إلى نابلس لحضور المؤتمر. وقبلت رجاءه بطبيعة الحال

ونفذت المهمة على ما فيها من مخاطر! ويشهد على هذه الواقعة الاستاذ فاروق القاضى الصحفى الذى صحبنى فى هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

لقد رويت هذه الواقعة حتى يدرك القارئ سخرية الموقف الذى كان على أن أواجهه أمام المجلس العسكرى متهما بأشياء يعلمها المسئولون وكانوا يرجون منى أداءها، وكان من الطبيعى أن ادلى فى تحقيقات النيابة بحقيقة الوقائع وتفاصيل الاحداث وان اطلب سماع أقوال عدد من المسئولين الذين كانوا من شهودها، ولم يكن أمام المجلس العسكرى الا أن يحكم ببراءتى.

ولقد سبق أن ذكرت أن ظروف معتقل الواحات كانت معقولة نسبيا فى تلك الفترة بالقياس إلى ظروف المعتقلات الاخرى. فقد كانت هناك حرية فى الحركة داخل اسوار هذا المعتقل الكبير وكانت هناك مزرعة تبعد عن المعتقل بنحو ثلاثة كيلو مترات وكان فى مقدورنا الذهاب إلى المزرعة والعمل فيها

إذا شئنا. وقد استطاع المعتقلون بطرقهم الخاصة توفير مكتبة ضخمة من الكتب السياسية والادبية والعلمية والفلسفية والتاريخية، وأجهزة ترانزستور كانت في صلتنا باذاعات العالم المختلفة وكانت المكتبة عونا كبيرا لهؤلاء المثقفين الذين طال حرمانهم على احتمال السجن وقتل وقت الفراغ. واستفدت أنا شخصيا من هذه المكتبة أكبر استفادة إذ استطعت بتنظيم وقتي ان انجز خلال عام المسودة الاولى من كتابي «العلم والحضارة» الذي صدر عام ١٩٦٧. كما أمكن بالتدريج الحصول على المجلات الادبية والثقافية التي تصدر في القاهرة، وكان هذا حافزا لنا لاصدار مجلة حائط أدبية كان لي شرف المشاركة في تحريرها.

ولم تكن صلتنا بالاهالي مقطوعة خلال هذه الفترة. فقد كنا مع المحكوم عليهم بأحكام قضائية في مكان واحد ولم يكن يفرق بيننا الا لون بدلة السجن. وكان المحكوم عليهم حق تسلم الخطابات من أهليهم وحق الزيارة مرة كل شهر، على عكسنا نحن المعتقلين اذ كنا بدون حقوق.

ولكن بعد فترة وبالتحديد خلال السنة الاخيرة من حياة المعتقل، استطاع المعتقلون التغلب على هذه الصعوبات.. أذ دبروا وصول خطابات ذويهم لهم عن طريق إرسالها بالبريد باسم أحد المسجونين ، كما استطاع أهالي المعتقلين زيارة ابنائهم بكتابة اسم أحد المسجونين على أورنيك الزيارة عند الوصول إلى باب السجن. وعند الدخول إلى غرفة الزيارة يجدون ابنهم في انتظارهم! ومن الطبيعي ان ادارة المعتقل كانت على علم بهذا التحايل ، ولكنها كانت تغمض عينيها وتنصرف وكأنها لا تعرف شيئا!

في ظل هذه الظروف استطاعت زوجتي أن تزورني أربع مرات.. في يوليو سنة ١٩٦٣، سبتمبر سنة ١٩٦٣، يناير سنة ١٩٦٤ ، وفبراير سنة ١٩٦٤ . وجاءت هذه الزيارات بعد فراق أكثر من عامين، وفي ظل هذه الظروف تسلمت منها عددا من الرسائل يجد القارئ بعضها في هذا الكتاب، وفي ظل هذه الظروف استطاع المعتقلون والمسجونون القيام بنشاط ثقافي واسع سيجد القارئ صداه في بعض الخطابات المنشورة بالكتاب. فقد بنى المعتقلون مسرحا في الهواء الطلق وأخرجوا

عددا من المسرحيات المعروفة ونشطت الفرق الرياضية في كرة السلة وكرة القدم ... الخ.

كما اتسع النشاط والخلاف السياسي.. وعندما أتأمل اليوم هذا الجانب فمن الممكن القول إن الخلافات السياسية بين الشيوعيين المصريين كانت قد بدأت قبل يناير سنة ١٩٥٩. وكان محور هذه الخلافات هو الموقف من سياسة الحكومة عام ١٩٥٨. فبينما كانت الاغلبية ترقب هذه السياسة في حذر وتحفظ وبنظرة ناقدة لقضيتي الوحدة والديمقراطية، كانت مجموعة شهدي عطية تتخذ موقف التأييد شبه المطلق لسياسة عبد الناصر، كان هذا هو الموقف حتى يناير سنة ١٩٥٩، ولكن بدأت بعد ذلك الانقسامات والخلافات داخل صفوف الاغلبية في المعتقل، اذ تورط قسم من هذه الاغلبية في تحليلات يسارية خاطئة لسياسة وطبيعة قيادة ثورة يوليو وصلت إلى حد الترويج لنظرية رأسمالية الدولة الاحتكارية.. الخ. بينما ظل الجزء الآخر محافظا على نظرة واقعية لنظام عبد الناصر ... لاينكر عليه أصوله الوطنية التقدمية وان ظل

ناقدا النظام لمواقفه غير الديمقراطية وموقفه الجامد من قضية الوحدة.

في الواحات انن كانت هناك ثلاثة تيارات سياسية.. أحدها يكاد يقول إن الاشتراكية تتحقق بالفعل على يد عبد الناصر، والآخر يرى في عبد الناصر ممثلا للاحتكارات المصرية والاجنبية والتيار الثالث يرى في النظام علامات حكم فئات البورجوازية الصغيرة بكل ما فيها من مميزات ثورية كبيرة وتناقضات ومواقف معادية للديمقراطية..

ولقد كان طبيعيا أن تصدر مجلات سياسية في الواحات تعبر عن هذه التيارات الثلاثة وأن يشتد الصراع والجدل، وأحيانا كان يتحول إلى تهجمات شخصية اساءت إلى جو المعتقل اساءة بالغة. ولعل هذا الوضع كان أكبر محنة فكرية ونفسية اجتزتها في الواحات، وسوف يرى القارئ أصداء هذا في الخطابات المتبادلة بيني وبين زوجتي.

بعد هذه الصورة العامة أود أن أوضح عددا من الحقائق الخاصة بهذه الرسائل.. لقد ظل الاتصال بيني وبين عايدة

ثابت متصلا طوال السنوات الخمس، ولم ينقطع الا فترات وجيزة خلال فترة التعذيب في أبو زعبل، وكثير من رسائلها وصلني بالبريد، غير أن بعضها وصل عن طريق رسل شخصيين تطوعوا إما شهامة أو مقابل نقود أن يحملوا اليها خطاباتي أو يأخذوا منها خطابات لتسليمها لي. ولكني لم استطع الاحتفاظ برسائلها في السنوات الثلاث الاولى خوفا من التفتيش المفاجئ لنا داخل المعتقل، وما كان أكثره! واحتفظت فقط بخطاباتها خلال الفترة ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ابان اقامتي بالواحات. أما رسائلي لها طوال السنوات الخمس فقد احتفظت هي بها في عناية فائقة، وهكذا وجدت عند اعداد هذا الكتاب كل خطاباتي لها وبعض رسائلها لي..

ولعل هذا يفسر للقارئ ما سوف يلاحظه من أن رسائلها لي في الكتاب لم تبدأ إلا في عام ١٩٦٢.

ومع ذلك فالرسائل المنشورة ليست الا جزءا من الرسائل المتبادلة بيننا، ولم أختر من هذه الرسائل الا ما رأيت أنه ذو دلالة خاصة في متابعة أحداث الكتاب، وبطبيعة الحال هناك

عشرات أخرى من الخطابات الشخصية التى لم أشر اليها في الكتاب.

تبقى قضية التوقيع فى نهاية الرسائل.. لقد كنت غالبا اوقع خطاباتي باسم «كامل» وليس هذا اسما سريا.. ان هذا هو اسمى الحقيقى فى اسرتى وبين أهلى عندما كنت صغيرا، وقد درجت العائلات في زماننا على التقليد الغريب بأن يكون للمولود اسم فى شهادة الميلاد غير ماينادى به فى المنزل. أما هى فقد حرصت على التوقيع باسم «عنايات» خوفا من أن تقع الرسائل فى أيدى أجهزة الأمن، وكانت تناديني باسم «سعد» فى هذه الخطابات لانها كانت مرسلة باسم المسجون الشيوعي الاستاذ سعد رحمي، ومكتوبة كأنها من شقيقته!

ولقد حرصت على نشر هذه الرسائل كما هى بدون اضافة أو تعديل.. اللهم الا تصحيح بعض الاخطاء اللغوية أو اعادة صياغة بعض الجمل الركيكة مع الاحتفاظ بالمعنى كما هو، لانني حريص على الاحتفاظ بالطابع التاريخي والانساني - بكل جوانب قوته وضعفه - للرسائل.

ومع ذلك فلست أقصد من هذه الرسائل تاريخا لهذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر.. إن هذا ابعد ما يكون عن ذهني، وإن كنت أزعم أن هذه الرسائل تعطي القارئ صورة عامة سريعة عما جرى في هذه الفترة من تعذيب وأحداث هامة ونشاطات مختلفة.

ان ما دعاني إلى نشر هذه الرسائل في هذا الوقت بالذات هو وفاة زوجتي عايدة ثابت، وما وجدته من تشجيع من عدد كبير من الاصدقاء - المطلعين على هذه الرسائل – على نشرها، ولم أقصد من النشر أن أقدم كتابا سياسيا في المحل الاول .

ولكني أود أن أوضح انني لست راغبا بهذا النشر في المشاركة في حملة التشهير التي يتعرض لها عبد الناصر، بل واشنعه في السنوات الاخيرة من عناصر رجعية معروفة بعدائها التقليدي للشعب واحتقاره، والتي تستهدف القضاء على كل المنجزات الايجابية لثورة يوليو.

وغني عن البيان أنني كنت - ومازلت - مقتنعا بأن عبد الناصر هو استمرار حقيقي لعرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول... وإن كان استمرارا أرقى، وإن الذي ينكر أن عبد الناصر هو أحد القادة المرموقين للنضال الوطني والعربي ضد الاستعمار في العالم الثالث في العصر الحديث هو شخص اما مغرض أو سفيه! ولا أعتقد ان هناك شخصا واحدا على أي قدر من الموضوعية يستطيع أن ينكر قيمة التحولات الاجتماعية الهامة التي قادها عبد الناصر في المجتمع المصري.

وليس معنى هذا أنه لم توجد سلبيات هامة ولم ترتكب أخطاء وجرائم في ظل عبد الناصر، لقد سبق لي أن أوضحت رأيي تفصيلا في هذه السلبيات، وجوانب القصور في فكر الثورة واعمالها في «محاورات اليسار المصري مع توفيق الحكيم» «وقد نشرتها دار القضايا البيروتية منذ عام».

والاكثر من هذا انني وآخرين كثيرين حاولنا أن ننبه عبد الناصر والنظام عموما - إلى خطورة هذه السلبيات في حينها وعندما وقعت ! وجاء هذا التنبيه على صورة مقالات

ومطبوعات وخطب انتخابية (سنة ١٩٥٧ عندما كنت مرشحا بدائرة الوايلي) ورسائل من بعض المثقفين رفعت إلى عبد الناصر من خلال أصدقائه والمتصلين به. وربما دفعنا ثمنا باهظا لهذا النقد في وقت كان معظم قادة حملة التشهير الحالية يسبحون بحمد عبد الناصر ويعلنون تأييدهم الاعمى له بالحق وبالباطل!

ولأن عبد الناصر كان ولي نعمة كثير من قادة حملة التشهير التي تبلورت في السنين الاخيرة. فإن الانسان لا يملك الا أن ينظر باشمئزاز وازدراء إلى كثير من قادة هذه الحملة الذين تعودوا أن يأكلوا على كل الموائد!

ان هذه الرسائل اذن لا تستهدف التشهير وانما تحكي أولا وأخيرا قصة حب وصمود بين زوجين شابين مشتغلين بالعمل السياسي ادركتهما اعاصير الحركة السياسية بمحنة اعتقال الزوج أكثر من خمس سنوات وتشريد الزوجة طوال هذه الفترة ومع ذلك فقد استطاع هذا الحب أن يصمد للاختبار.

ولهذه القصة الإنسانية جانب آخر لا يخفى على القارئ، ان العـواطف الملتـهبـة التى تبـدو فى هذه الرسـائل ليس مصدرها فقط أنها رسائل زوجة كانت في الرابعة والعشرين من عمرها وزوج كان في الخامسة والثلاثين من عمره بكل ما يعنيـه هذا من التـهـاب العـواطف وتأجج الاحـاسـيس بين عاشقين، وانما مصدرها ايضا رباط فكرى قوى ظل يقرب بيننا ويبـعث الدفء في حيـاتنا على طول السنين في ظل الحرية. وبامـتزاج هذا الرباط الفكرى الاشـتـراكي بالحب الانسـانى تولد لدى كل منا احسـاس عميق بأنه لا يستطيع الاستغناء عن الآخر. وربما جرى بيننا بين الحين والاخر ما يجرى بين كل زوجين من مشاحنات صغيرة، ولكن ظل هذا الشعور الجارف قويا دائما وفى كل الظروف.

لكن عايدة ثابت مـاتت فى ١٠ نوفـمبـر سنة ١٩٧٥ اثر فاجعة مروعة لم يقدر أى منا انها سوف تنتهى إلى هذه النهاية. ولقد افاضت الصحف والمجلات المصرية والعربية فى ذكر الحادث الذى أدى إلى الوفاة وان كانت قد ذكرت بعض

التفاصيل غير الصحيحة. ولذا يكفيني هنا أن أذكر الوقائع الأساسية للحادث وتطوراته.

في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ كنت عائدا بالطائرة من روما حيث حضرت اجتماعا للخبراء الاخصائيين لمنظمة الاغذية والزراعة الدولية. وذهبت زوجتي وابنتي حنان لانتظاري كالعادة في المطار وقبل وصولي بربع ساعة هاجم كلب ضال ابنتي حنان وعقرها في قدمها اليسرى، واندفعت زوجتي تدافع عن حنان فهجم الكلب عليها وطرحها على الارض حيث عقرها في ساقها الايمن وكفها الايمن أيضا. ولقد ذهبا إلى مستشفى منشية البكري فورا حيث جرت الاسعافات الاولية. ثم بدأت المستشفى في اليوم التالي حقن زوجتي وابنتي بالمصل المضاد لمرض الكلب لمدة عشرين يوما أي من ١٨ أكتوبر حتى ٥ نوفمبر. وبدأ تحسن واضح من العلاج، الامر الذي دفع زوجتي إلى العودة إلى عملها الصحفي في اليوم الخامس عشر من الحادث وبناء على مشورة الاطباء، ولقد ساعد على خلق جو الاطمئنان الكاذب بيننا جهلنا

الكامل بأعراض المرض، وماقاله أطباء مستشفى منشية البكرى ومستشفى القلب والاطباء الخصوصيون من أن المصل مؤكد المفعول ومن أن أعراض المرض - ان بدت - فإنما تظهر في اليوم الحادي عشر من الحادث ولما مضى اليوم الحادى عشر حتى الثامن عشر دون تعقيدات أو شكوى شاع الاطمئنان في نفوسنا . وسافرت يوم ٦ نوفمبر بعد انتهاء العلاج لحضور مؤتمر لليونسكو العربي في قطر، وليس يخطر على بالى أن وداعها لى على باب منزلنا هو الوداع الاخير!

نعم لقد شكت ليلة سفرى من ألم في ذراعها الايمن. ولكن ما اسهل ما نسينا - نحن الاثنان - هذا المجهود الذى بذلته فى كتابة مقالاتها بيدها اليمنى اثر عودتها إلى العمل الصحفى، فضلا عن شكواها منذ سنوات من آلام روماتيزمية فى ذراعيها وقدميها.

الاغرب من ذلك انني تحدثت معها تليفونيا من قطر قبل وفاتها بأربع وعشرين ساعة ولم تكن تشكو الا من ألم شديد

في ذراعها الأيمن، لقد بدأت التعقيدات الصحية خلال الاربع والعشرين ساعة الاخيرة لها، وتدهور الموقف فجأة ودخلت في غيبوبة ثم فاضت روحها الطاهرة في صباح الاثنين ١٠ نوفمبر !

لقد ماتت عايدة ثابت في أنضج سنوات حياتها .. وبعد أن بدا أن القدر قد ابتسم لنا بالبيت السعيد والابنة التي هي قرة عين والديها، جاءت هذه الفاجعة الخاطفة لتخنق آمالا مزدهرة في حياة سعيدة طويلة لنا نحن الثلاثة، وهكذا شاء القدر أن يحرمني وابنتي من أعز وأحب من كان لنا في الحياة!

كانت عايدة ثابت انسانة بكل معنى الكلمة.. رقيقة كالنسيم، باسمة كالزهور، في دماثة الكلمة الطيبة، وكانت دائما قادرة على أن تشيع في كل من حولها روح البهجة والسرور مهما كانت الظروف. تصدق عليها كلمة الكاتب الامريكي مارك توين حين قال في «يوميات حواء» مشيرا إلى زوجته «اينما حلت كانت هناك جنة»!

ولكن عايدة ثابت كانت شجاعة أيضا خصوصا فى الدفاع عن المضطهدين والمظلومين والفقراء، إلى الحد الذى قد يعتبره الناس تهورا. كانت تكره الظلم والاضطهاد إلى أبعد الحدود. وكان قلبها دليلها فى هذا الميدان. تصدق عليها أيضا كلمة تولستوى حين وصف مكسيم جوركى بأنه صاحب «القلب الحكيم» لقد كان قلبها هو دليلها إلى الحكمة. لأنه كان يتسع لمحبة الآخرين وينشغل بالآخرين قبل أن ينشغل بشئونها!

ولقد بدا لى دائما أن عايدة ثابت والموت شيئان متناقضان. لانها كانت على الدوام للحياة.

فما اقسى الحياة بعدها على الذين عرفوها جيدا واحبوها من صميم قلوبهم!

عبد العظيم انيس

العـــودة

بعد أيام من وصول خطابها الاخير، وبالتحديد في ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ تم ترحيلي مع آخرين من زملائي إلى السجن الحربي بالقاهرة.. نقلنا بالسيارات إلى سجن أسيوط حيث بقينا في فنائه عدة ساعات، وفي مساء نفس اليوم أقلنا بالقطار إلى محطة الجيزة حيث وصلناها الساعة السابعة من صباح يوم ٤ أبريل . ومن محطة الجيزة نقلتنا سيارات وزارة الداخلية إلى السجن الحربي.

خلال ساعات الليل التي قضيناها في قطار أسيوط – الجيزة حاولت أن أنام وفشلت من طول الارهاق وشدة الانفعال.. هاأنذا اعود مرة أخرى إلى زوجتي وأولادي وأهلي وشعب مصر، هاأنذا أعود من جديد إلى أرض الوطن!

لكأنما كنت منفيا خارج البلاد، رغم أني أعلم علم اليقين أن أرض الواحات الخارجة هي جزء لا يتجزأ من أرض الوطن.. لعل هذا يثبت مرة بعد مرة ان الوطن ليس هو الرمال والشجر والارصفة والمباني، وانما هو الناس..

الفلاحون والعمال والطلاب والمثقفون والجنود وكل من يضع لبنة في حاضر مصر ومستقبلها!

هاأنذا أعود من جديد فأشرب من ماء النيل بعد أن حرمت منه سنوات، وأمتع عيني بخضرة الوادي، وحقوله السندسية امتع أذني بأصوات أولاد البلد وضحكاتهم.

أحسست في القطار بمشاعر شديدة الشبه بمشاعري يوم عودتي من البعثة عام ١٩٥٢، لحظة اقتراب السفينة من شاطئ بورسعيد . لم أكن أعرف واحدا من المنتظرين على الشاطئ ولكني كنت تواقا إلى احتضانهم جميعا كأنما هم جميعا أهلي واخوتي، وعندما نزلت إلى الشاطئ وقابلني أول حمال ابتسمت في وجهه ابتسامة عريضة وشددت على يده مرحبا كأننا نعرف بعضنا البعض منذ زمان طويل. وأغلب الظن أنه نظر إلي في دهشة لا يفهم لهذه التحية الحارة سببا!

حاولت الان أن أنام فلم أفلح، فشغلت نفسي بنظم قصيدة بالعامية تعبر عن مشاعر هذه اللحظة . وبخلنا

السجن الحربي حوالى الساعة التاسعة صباحا. ألقيت نظرة على فناء السجن.. سجن ككل سجون الدنيا يبدو عاديا في مظهره مع أننا كنا نسمع طوال السنوات الخمس عن التعذيب الذي يجري في داخله ما يقشعر له البدن. ورأيت كلبين في فناء السجن يتسكعان في تكاسل من قلة العمل فيما يبدو!

كانت ابتسامات ضباط المباحث العامة في انتظارنا، وشئ غير قليل من الأدب واللياقة في المعاملة.. قالوا لنا اننا سوف نكون في بيوتنا بعد ثلاث ساعات عندما ينتهون من ملء استمارات البيانات اللازمة وتصوير كل واحد منا!

وسألت ضابطا لا أعرف اسمه - وان بدا أنه يعرف اسمي - ان كان في استطاعتي أن أتحدث مع اخوتي تليفونيا لاخبرهم انني بالقاهرة وأنني سأكون معهم بعد ساعات، فرحب بطلبي على الفور. وكانت الصعوبة الاولى أن أتذكر أرقام تليفونات منازل اخوتي بعد هذه الغيبة الطويلة، ولكني تذكرت رقم تليفون شقيقتي فاطمة في العباسية وأدرت القرص فلم أجد ردا وضحك الضابط قائلا ان أرقام تليفونات العباسية قد تغيرت خلال هذه السنوات. حاولت أن اتصل

بشقيقتي فتحية في البقي، وجاء صوت زوجها واضحا يسأل: من المتكلم؟ وعندما أجبت صرخ الشيخ الكهل - كأنما مسته صاعقة - مناديا علي شقيقتي. وجرت إلى التليفون وهي تصرخ وتضحك وتزغرد وتبكي في أن واحد لا تريد أن تصدق. كان من الضروري أن اضبط عواطفي وأن أطلب منها بسرعة ان تتصل بعايدة وأن تعرف العائلة انني سأذهب إلى منزل شقيقتي فاطمة في العباسية وأن عليهم أن ينتظروني هناك. ولم أعطها فرصة أكثر من ذلك ووضعت السماعة خوفا علي نفسي من الانفعال!

ولا أعرف ما حدث بالضبط بين أخوتي بعد هذه المكالمة، ولكني علمت بعد ذلك أن وفدا من العائلة ظل ينتظرني أمام الباب الامامي للسجن الحربي من العاشرة صباحا حتى الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم!

أما أنا فقد فتح لي - ولثلاثة من زملائي - الباب الخلفي للسجن الحربي في الساعة الرابعة بعد الظهر تماما وقيل لنا: انصرفوا!

وخرجت إلى دنيا الحرية.. على جسدى سترة قديمة كانت ملقاة فى مخازن سجن الواحات سنوات، وفى يدى كيس ممزق من القماش به حاجيات الحلاقة ومعجون وفرشاة أسنان وغيار داخلى وكتاب عن موسيقى الشعر وآخر فى المنطق وبعض ابحاثى القديمة فى الرياضيات، وفى جيبى ورقة بخمسة جنيهات هى كل ما أملكه فى هذه الدنيا.

ومن السجن الحربى نلفت فى دقيقة إلى طريق صلاح سالم .. شارع واسع لا أعرف عنه شيئا لانه أنشئ خلال غيابنا. أين أنا بالضبط فى القاهرة؟ لم أكن أدرى.. حاولت أن أوقف تاكسيا فلم أفلح.. وعندما جاء أول أتوبيس ركبت وليس فى ذهنى أية فكرة إلى اين يذهب! سألت الكمسارى: إلى أين يذهب هذا الاوتوبيس فنظر إلى شذرا – وكأننى من أهل الكهف – وقال : أين تريد أن تذهب ؟ قلت العباسية، فأجاب : نحن فى العباسية !.. اعطيته الورقة ذات الجنيهات الخمسة فنظر إلى فى امتعاض وقال: مافيش فكة، قلت . ليس

في جيبي مليم آخر وبدا عليه الضيق وفي عينيه تساؤل كأنما يقول لنفسه- من أين هؤلاء الناس ! آه لو يعرف.

وتركني يائسا.. ووجدت بعد ثلاث محطات انني عند باب كلية الهندسة جامعة عين شمس نعم، هذا مكان أعرفه ويعرفني لانني قمت بالتدريس فيه منذ سنوات. وقفزت من الاوتوبيس في عجلة وركبت أول تاكسي صادفته وأعطيت السائق العنوان وبدا على السائق الدهشة.. فالمسافة صغيرة لا تستحق ركوب تاكسي ولكني أصررت..

وعندما ارتقيت درجات العمارة – متجاهلا المصعد – في سرعة وضغطت على جرس الشقة لم يكن فيها غير شقيقتي وابنة عمي وأمها. أما الباقون فقد كانوا هناك.. عند الباب الامامي السجن الحربي ينتظرون! كانت شقيقتي تنتظر عودة صبي المكوجي بالفساتين التي أرسلتها الكي في هذه المناسبة، وذهبت ابنة عمي تفتح الباب في تثاقل المكوجي الصغير فوجدتني أمامها، واذا بها تقع على الارض مغشية عليها!

ثمة لحظات شديدة القسوة من شدة الانفعال في حياة كل انسان، وتلك كانت احدى هذه اللحظات في حياتي. لست أذكر ماذا فعلت بالضبط ولا ماذا فعلوا وقالوا لي، ولكني مازلت أذكر أنني ظللت لدقائق أسمع أصواتا غامضة متضاربة متناقضة كأنني في حلم رهيب، لا أفسر منها شيئا!

وعندما هدأ كل شئ عرفت أن عايدة ثابت بالاسكندرية في زيارة لخالها، وأن أولادي، أيضا خارج القاهرة.

لكنها عادت في المساء، وكان لقاء .. وأي لقاء!

قال: من؟

قالوا: سليمان الحلبي

ليغفر لي الصديق الأديب الفريد فرج اقتباس هذا العنوان من مسرحيته «سليمان الحلبي» التي مثلت على المسرح القومي في الستينيات بنجاح هائل - فحتى اليوم - بعد ما يقرب من عشرين عاما على هذا الحدث الفني الكبير - مازلت أذكر بعضا من مشاهده وكأنني رأيتها بالأمس فقط !

كان المشهد الذي هزني بشكل خاص هو مشهد ذهاب سليمان الحلبي مع صديقه محمد المصري - وهما من أبناء الأزهر وتلاميذ أساتذته المخلصين حقا لطريق الرب - يحاولان مقابلة الشيخ عبدالله الشرقاوي . وسليمان لم يكن يملك إلا أن يقارن في عقله القلق وضميره المعذب بين موقف الشيخ الشرقاوي الذي قبل أن يهادن المحتل الفرنسي بونابرت «ساري عسكر الفرنسيين» ويدخل عضوا في ديوانه، وبين موقف مولانا الشيخ السادات الذي آثر السجن على مثل هذا الموقف . ومحمد يحاول جاهدا أن يثني سليمان عن زيارة الشرقاوي . لكن سليمان يصر ويقول لصديقه «علمني

الشرقاوي فأضناني بالقلق المبارك أيكره أن أهديه بعض وساوس المروءة ؟» .

فلما نادى المنادي باسم سليمان الحلبي في منزل الشيخ الشرقاوي ، بهت الشيخ العجوز يستعيذ بفطنته أن تهديه لسبب هذه الزيارة المفاجئة فيتهيأ لها بما يناسبها من التحفظ أو الترحاب . لكن فطنته لم تسعفه ، فقال : من ؟ قالوا : سليمان الحلبي ! .

وقال الكورس في المسرح : سليمان الحلبي ، سليمان الحلبي ، سليمان الحلبي ، اسم ليس له رنين نعرفه ، لا رنين الذهب الابريز ولا رنين الفضة الصافية . ولا رنين البرونز المدوي ، ولا الصفيح الجعجاع ، ذلك أنه عملة جديدة لم يخبر رنينها بعد سلطان أو شحاذ ، شاعر أو مبدع ، مستعمر متأله ، أو عبد ذليل ، رنين سوف يدهش العقول فيما بعد ويطيش الصواب ، «يهت له الرجال وصرخت النساء ، تصدت له الأبطال وتصدت به الأبطال . أطلقه الحب ورجمه الحقد ، وهكذا صهرته نوازع العار ونوازع الشرف . ولم يكن أحد قد اختبره بعد أو تخيل معدنه » .

وها نحن من جديد - بعد نحو مائة وخمسين عاما - نشهد في المشرق العربي سليمان آخر جديد ، له أسماء عديدة على وجه اليقين ، فهو أحيانا يعرف باسم سليمان النابلسي أو سليمان المقدسي، أو سليمان المقرى وأحيانا أخرى يعرف باسم سليمان البيروتي أو سليمان الطرابلسي ، وهو اليوم يعرف باسم سليمان الصيداوي .

إنه لا يتحرك وحده ، وإنما يتحرك كالطيف في جبال لبنان وشعابها وسط مجموعة صغيرة ، وهو لا يحمل في يده خنجرا ، كما كان يحمل سليمان الحلبي ، وإنما يحمل في يده مدفع كلاشنكوف وعلى كتفه صاروخ أو يقود سيارة مليئة بالمتفجرات وهو يتجه إلى قاعدة من قواعد الاحتلال الصهيوني أو الامبريالي..

الآن يعرف العالم العربي ولا يجهل رنين هذه العملة الجديدة ، إنه رنين الذهب الابريز ، والآن خبر السلاطين المتواطئون والاستعماريون المتألهون والصهاينة المتجبرون رنين هذه العملة الجديدة ، وبسببها خرجت قوات الاحتلال

الامريكي من بيروت وانسحب الاسطول السادس وبدأ الصهاينة يبحثون عن مخرج ، وفزع المهادنون والمتواطئون كلما سمعوا رنين هذه العملة الجديدة، لأنهم يحسون في قرارة أنفسهم أنها سوف تصوغ المستقبل البعيد للوطن العربي مهما كانت التضحيات والآلام .

وكما فرز سليمان الحلبي موقف الشيخ الشرقاوي المهادن عن موقف الشيخ السادات المتمرد ، كذلك يفعل سليمان الحديث . فيفرز الناس إلى جانبين : جانب القابلين بالمهادنة مع الأجنبي المحتل ، وجانب المتمردين المصممين على دحر الاستعمار والصهاينة وطردهم بقوة السلاح .. جانب الراضين بالتسوية في ظل الضعف لأنها تحقق مصالحهم الخاصة ، وجانب الذين ترتبط مصالحهم الاجتماعية بتحرير الأرض وانتشار العدالة وإعلاء قيمة العمل .

وكلما سقط سليمان واحد في جنوب لبنان أو في فلسطين، ظهر عشرات بل مئات يحملون اسم سليمان ، لا أحد يعرف على وجه الدقة وجوههم ، وبعضهم يولد ويحمل سلاحه

ويحارب ثم يسقط في المعارك دون كلمة واحدة .

لكننا في العالم العربي نحترف رثيتهم بأنه ليس رثين المبقبع الجعجاع !

وكما ثار سليمان حلبي على الذين دعوه ألا يركب أجنحة الشطط وينسى قيمة الحياة وقال لهم : « وهزيمة أمة كريمة .. ما قولك .. أن نلبس العار ونأكل الندم ، وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة .. قدم رجولتك للمهانة وأطفالك لأنياب الجوع وعنق جارك للمشنقة .. اركع وادفع ! وعش لتتحول بفعل الساحر الفرنسي الأسود من رجل إلى كلب .. واسجد لغير الله ما تشاء ، وأرق ماء وجهك وعينيك ما تشاء ، فقد منحك كليبر سارى عسكر الفرنسيين أمان الحياة » .

كذلك يقول سليمان الحديث ، وأكاد أسمع صوته الهادر :

«وصبرا وشاتيلا، والمستعمرات الصهيونية في الضفة ، والتخطيط لاحتلال جنوب لبنان بجيوش العملاء من أمثال أنطوان لحد ، والأسلحة الامريكية لإسرائيل ، والحلف الاستراتيجي بين الصهاينة وواشنطن ، ومشروع ريجان الذي

يهدم حق تقرير المصير .

ما قولك : أن نلبس العار ونأكل الندم في ظل تسويات هي والاستسلام سواء . وعندئذ يصبح الجحيم نظام حياة .

ويعلو صوت الصفيح الجعجاع!

فكم بكينا

دمعتين ووردة!

حين طويت آخر صفحة من كتاب فريدة النقاش الجديد (السجن – دمعتان ووردة) أخذت أسأل نفسي : لماذا أقبلت على قراءة الكتاب بهذا النهم الغريب مع أن عالم السجن ليس جديدا بالنسبة لي وعلى كثرة مشاغلي في هذا الموسم من السنة الأكاديمية ؟

هل يكفي أن أقول إن صداقتي لفريدة هي السبب ؟ لا أعتقد هذا سببا كافيا ..

قلت : ربما كان السبب ان عالم سجن النساء هو الجديد وربما كان السبب الأهم أن هذا الكتاب هو أول شهادة أقرؤها لمناضلة مصرية عن السجن مع كثرة شهادات الرجال الذين دخلوه لأسباب سياسية بدءا من كتاب العقاد (في السجن) وانتهاء بكتاب فتحي عبدالفتاح (شيوعيون وناصريون) وكتابي (رسائل الحب والحزن والثورة) .

نعم .. هذه انن فريدة النقاش المناضلة والأم والزوجة والصحفية تدلي بشهادتها عن السجن الذي قضت فيه نحو شهرين في أغسطس ١٩٧٩ عندما اقتادوها هي وزوجها

حسين من مصيف جمصة ثم أعيدت إليه مرة أخرى في ٣١ مارس ١٩٨١ وقضت فيه نحو تسعة أشهر .

تم هذا كله في مرحلة من أخطر مراحل مصر الحديثة مرحلة الردة الساداتية عندما خان نظام السادات كل تراثنا السياسي والوطني والثقافي، وأدار ظهره لمصالح هذا الوطن وتلك الأمة وداس باسم السلام كرامة الشعب وشهداءه بأحذية الغزاة الصهاينة والامريكيين، عندما زيف الاستسلام فقيل إنه السلام .. أو بمعنى آخر عندما تمت خيانة كل التراث النضالي لثورة عرابي وثورة ١٩١٩ وثورة يوليو المجيدة تحت أعلام كامب دافيد .

كانت التهمة التي وجهت إلى فريدة النقاش هي عضوية الحزب الشيوعي المصري لكن كان ذلك شكلا لا أكثر ولا أقل، أما المضمون الحقيقي للتهمة فهو نشاطها ونضالها في صف القوى الوطنية المصرية التي وقفت – دون حساب للربح أو الخسارة – ضد هذه الردة السياسية ضد الاستسلام وخيانة مصالح المواطن ، فقالت ضمن ألوف : لن يمر الصهاينة من

هنا ونحن في القاهرة وهى لاتزال صامدة فى هذه المعركة الحاسمة معركة نكون أو لا نكون : لم تطو اعلامها ولم تنزو فى ثياب الحداد !

عندما نقفل آخر صفحة من كتابها يأتينا من بعيد صوت فنان الشعب اللبناني مارسيل خليفة وهو يغني قصيدة الشاعر العربي:

أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها

أجمل الأمهات التى انتظرته

وعاد مستشهدا .

فبكت دمعتين ووردة ولم تنزو

فى ثياب الحداد .

وها نحن دائما وعلي طول مسيرتنا الصعبة نبكي دمعتين ووردة ، نترك للأجيال التي تلينا ليس دموعنا الغزيرة وإنما هذه الوردة التي تعهدناها من طينة شهدائنا من محبتهم لهذا الوطن وذلك الشعب بعماله وفلاحيه وجنوده ومثقفيه .

عندما صيقت فريدة في المرة الأولى إلى زنزانة قذرة في مبنى المباحث العامة سألها الحارس العجوز : لماذا جئت ؟ قالت : لا أدرى ولكنني عضو في حزب التجمع الذى تلاحقه الحكومة قال الحارس العجوز : حين تشتد العواصف ليس عيبا أن ينحنى الناس يا ابنتى .. تذكرى أولادك .. كيف يكون حالهم إذا تعرضت للحبس الطويل .

لكن لهذا الشعب حكمة أخرى غير حكمة هذا الحارس العجوز، غير حكمة الربح والخسارة وربما لم يكن هذا الحارس يعرف أن فريدة وزوجها حسين قد تركا وراءهما عندما أتيا إلى السجن طفلين في المنزل هما رشا وجاسر ، كذلك كان حال فتحية زوجة زكي مراد عندما أخذوها بعد مصرعه بشهور فتركت وراءها أربعة أطفال أصغرهم لم تكن قد أكملت عامين من العمر. وكذلك فعلوا بشاهندة زوجة شهيد كمشيش صلاح حسين الذى اغتاله الاقطاعيون في زمن عبدالناصر فتركت وراءها ابنتها الصغيرة باسمة وهي مأخوذة إلى السجن .

فريدة وفتحية وشاهندة .. هذا الثلاثي الفذ من نساء مصر في سجون السادات لم يدعين بطولة زائفة في هذا الموقف فكم سالت دموعهن حزنا على فراقهن لأطفالهن، لكنهن تعلمن الصبر والصمود والتواضع وكان وضوح الرؤية عاملا هاما في هذا التماسك وتلك الصلابة .

كتبت فريدة من السجن إلى ابنها جاسر تقول : نحن يا حبيبي نعيش في ظل هيمنة هؤلاء الذين ابتذلوا ثقافتنا الوطنية والقومية وتراثنا ليقيموا أدلة على طيبة الظالمين .. تلك ذنب عظيم لا يكفر عنه شئ مهما كبر .. فما بالنا لو كانت كفارتهم ذلك الابتهال الزائف إلى الله والتفتيش في القرآن الكريم لاستخراج شهادة براءة لأعدائنا .. إن صلاتهم الحقيقية يا حبيبي وقرابينهم تقدم للبنتاجون والكونجرس والكنيست فهل ننتظر من هؤلاء أن يعرفوا لغة الغياب والحضور هل تحزن يا حبيبي لأننا ننتمي إلى هذا الميلاد الصعب للعالم القادم ؟

نحن فقط نغيب بهذا العذر القاهر فلا تحزن وانتظرنا دائما.

وفي سجن القناطر كان صوت شاهندة النحاسي يدوي بحكمة القلب الذي عرف طريقه إلى تلك الحكمة من خلال المأساة .. مأساة مصرع الزوج برصاص الإقطاعيين واستشهاد شقيقها الطيار أشرف بقذيفة امريكية صهيونية في آخر يوم من أيام حرب الاستنزاف على ضفاف القناة .

ولم تتردد عندما رأت أحد ضباط المباحث يهم بالصلاة في أن تمسكه من ذراعه وتقول له : « إن الله لن يقبل هذه الصلاة أبدا .. تعذب الناس ثم تتصور أن المغفرة سهلة ! دا بعدك .. » كما لم تتردد في أن تنتزع بيديها القويتين أسلاك الشباك التي حاول ضابط المباحث أن يضعها على زنزانتها وزنزانة صافي ناز كاظم في محاولة لمنعهما من الاتصال .

كان مكسيم جوركي يحكي للكاتب العظيم تولستوي كيف عمل في مرحلة من حياته بستانيا في منزل جنرال روسي من

جنرالات القيصر .. وفوجيء ذات يوم وهو يعمل في الحديقة بزوجة الجنرال تضرب إحدى خادمات المنزل ضربا وحشيا فلم يتمالك جوركي نفسه وهجم على زوجة الجنرال وضربها على مؤخرتها ! وأنقذ الخادمة لكنه فصل من عمله .

وضحك تولستوي حتى دمعت عيناه وقال لجوركي : إن لك قلبا حكيما !

بهذه الحكمة التي في القلب كما هي في العقل تشهد عشرات وعشرات من صفحات كتاب فريدة النقاش .

وهي تحكي قصة هذا الثلاثي من نساء مصر في سجن القناطر في مواجهة القضبان والمفتاح الثقيل الذي يدور كل عصر في باب الزنزانة فيعلن عزلتهن النهائية لمدة أربعة عشر ساعة متواصلة من كل يوم :

أليس من حقنا أن نقول مع الشاعر :

أجمل الأمهات التي عينها لا تنام

تظل تراقب نجما يحوم .

على جثة في الظلام .

لكن كتاب فريدة النقاش لا يقدم شهادة مناضلة مصرية في السجن فحسب ولا هي تقدم مجرد الرسائل الشاعرية الرقيقة التي كانت تبعث بها إلى زوجها في سجن طرة أو إلى ولديها جاسر ورشا في الخارج والتي عبرت بها عن أزمتها العاطفية لابتعادها عنهما وما يمكن أن يسببه هذا البعد والاعتقال لهما من أزمات نفسية كما عبرت بها عن صمودها الإنساني في وجه الظلم والقضبان .

كلا .. لقد قدمت فريدة أيضا في هذا الكتاب شهادة فذة عن الحياة الحقيقية في سجون مصر اليوم .. وفي سجن النساء بالقناطر بالذات عن تريزا ونظيمة المسورتين، عن السيدة «مزاج» تاجرة المخدرات ، عن ليلى المطوة التي احترفت الدعارة، عن مأساة موت صفية التي ضبطت تمارس الجنس مع مسجونة صغيرة، عن مهندسة الديكور (ل . ح) التي تزوجت الكويتي العجوز وعاشرت ابنه الشاب ، وعن مشروع الراقصة المجهضة (صابحة) التي تذكرنا شخصيتها بزوربا اليوناني في الرواية أو الفيلم، عن سلوى التي نشلت

ساعة من إحدى تاجرات المخدرات عندما علمت أن ساعة فريدة لا تعمل وقدمتها لها تحية ومودة .

في هذا العالم الغريب المليء بالسل والجرب والعراك الليلي والإيقاعات الشعبية من عويل ورقص وغناء وزغاريد وطقوس ذات ملامح افريقية تمشي تاجرات المخدرات مرفوعات الرأس محصنات بما يملكن سواء في خارج السجن أو داخله، تحتقرن كل الجرائم الأخرى باستثناء السياسة لأنهن يعرفن من خبرتهن أن الانقسام الاجتماعي الموجود في الخارج ممتد بشكل أكثر ضراوة إلى داخل السجن، وأن الفساد والرشوة اللتين بالخارج هما سلعة عادية ومقبولة بالداخل أيضا .. ومع هذا كله ثمة عديد من المواقف الإنسانية التي لم تخطئها عين فريدة الصحفية وقلب فريدة الفنانة والتي لا يتسع الحديث عنها في مثل هذه العجالة .

وتعترف فريدة في النهاية أن كتابها هذا يبدو بلا ختام .. كتابا مفتوحا قابلا أبدا .. للزيادة وليس للنقصان .. فمتى يختتم مثل هذا الكتاب اذن ؟

تقول فريدة : «عندما ينجح المد الديمقراطي في إسقاط القوانين الاستثنائية وإلغاء حالة الطوارىء وإغلاق المعتقلات السياسية إلى الأبد وصولا إلى اليوم الذي تنتزع فيه الجماهير الديمقراطية وتحرسها .

وإلى أن يأتي هذا اليوم ستظل مثل هذه الكتب مفتوحة بلا ختام وستظل عيوننا أيضا مفتوحة بلا أحلام زائفة أو أوهام» .

حوار مع الدكتور عبد العظيم أنيس

ضم الدكتور عبد العظيم أنيس هذا الحوار إلى كتابه فهو يتضمن رأيه في اليسار ويعتز بهذا الرأي، وأراد أن يكون في خاتمة الكتاب

هناك لحظات في التاريخ تتميز بخلط الأوراق وافتقاد الرؤية ، وتسود فيها العملة الرديئة ، التي تطرد العملة الجيدة من التعامل، ومثل هذه اللحظات تحتاج إلى العين الثاقبة التي تفرز الغث من الثمين وتحدد اتجاه البوصلة ، وتقيم حقيقة الأدوار التي تطفو فوق السطح وتتسيد المشهد . ولعل الواقع المصري في لحظته الهشة الراهنة - وبخاصة في الثقافة والسياسة - هو أكبر مثال على هذا الخلط . ولعل هذا أيضا هو ما دفعنا للحديث مع الدكتور عبدالعظيم أنيس ، فهو من العيون الثاقبة في وطن تحاصره الغشاوة . والدكتور أنيس غني عن التعريف فهو من أكبر مفكري اليسار المصري اتساقا مع النفس . وذات يوم قال الدكتور جلال أمين إن لفظ مثقف لا ينطبق بحق إلاَّ على قليل منهم عبدالعظيم أنيس ليس لأنه عالم للرياضيات ولا لأنه كاتب وناقد للأدب والفكر ولكن لأنه مهموم طوال الوقت بقضايا وطنه وأمته ...

وفي هذا الحوار يرفض الدكتور أنيس أن نطلق لفظ «مثقف» على كثيرين يمتلكون معرفة عالية جدا ولكنهم يمشون بجوار الحائط في الحوار أيضا قضايا عديدة حول الأزمة الثقافية الراهنة ومؤتمر المثقفين المزمع عقده وعلاقة عبدالناصر باليسار المصري وقصة انسحاب الدكتور أنيس فجأة من الكتابة في جريدة «الوفد» وغيرها من القضايا .. لكننا آثرنا أن نبدأ بمعرفة رأيه فيما رواه الدكتور رفعت السعيد الأمين العام للتجمع بخصوص د. أنيس في كتابه «مجرد ذكريات» الذي صدر أخيرا وفيه يروي أن «بريماكوف» المراسل السابق لجريدة «برافدا» السوفييتية اتصل به هو والأستاذ خالد محيي الدين موفدا من القيادة السوفييتية وطلب منهما أن يرفض حزب التجمع الموافقة على الاتفاق الأردني الفلسطيني عام ١٩٨٤ حيث إن هذا الرفض الذي كان مطلبا للقيادة السوفييتية هو ما فعلته جميع الأحزاب اليسارية العربية . وكان الاتفاق يقضي بضم جزء من فلسطين المحتلة إلى الأردن في دولة واحدة .. وكان د. رفعت

السعيد وأ . خالد محيي الدين قد قررا قبول الاتفاق لإبلاغ السوفييت رسالة بأن التجمع لا يتلقى الأوامر منهم ، إلا أن الدكتور أنيس – حسب رواية د. رفعت – قاد فريق المعارضة للاتفاق في اللجنة المركزية للتجمع بحجة أن جميع الأحزاب اليسارية العربية قد رفضته ..

سألنا الدكتور أنيس ما حقيقة القصة ؟

فقال : أولا هو حكى قصة غريبة جدا حول لقائه هو وخالد محيي الدين مع بريماكوف ، هذه القصة لم أسمع بها نهائيا ، وقال إن الحجة التي استخدمتها في رفض هذا الاتفاق هي أن الأحزاب العربية اليسارية أخذت موقفا من الاتفاق فلماذا لا نأخذ نحن نفس الموقف وهذا غير صحيح لأن هذه الحجة لم استخدمها إلا في آخر الكلام . وأحب أن أوضح في البداية عدة نقاط أولا هو يدعي أنني قدت الحملة في اللجنة المركزية ، ولعلمك أنا عمري ما دخلت قيادة التجمع أبدا لأني عندما أنشئ التجمع كنت أعمل في المعهد العربي للتخطيط بالكويت ورجعت إلى مصر في ٣١ أغسطس ١٩٨١ أي قبل

اعتقالات السادات بثلاثة أيام ، وعلى هذا الأساس لم أكن في القيـادة ، وحين وصلت فـاتحني بعض الأصـدقـاء أن أدخل قيادة التجمع قلت لهم لا .. أنا مستعد للمساعدة فقط وحين أشارك في القيادة أشارك من هذه المنطقة ، حيث وجدت أن الموقف الذي حـدث واعـتـقـال الناس يسـتـدعي أن أشـارك وشاركت فـعلا بكل قوة في اللجنة السـياسـية دون أن أكون عضوا .

هذا معناه أنك لم توقع استمارة عضوية ؟

لم يحدث أبدا أن وقعت استمارة عضوية وكان لي وأنا في الكويت تحفظات على التجمع ، لكن الوضع الجديد الخاص باعـتـقـالات الناس جعل من واجبي أن أشـارك وظللت هذه المشاركة إلى أن حدث المؤتمر العام سنة ١٩٨٤ والذي كانت فيـه واقـعـة الاتفـاق الأردني الفلسطيني أو الخـيـار الأردني الفلسطيني ، وفوجئت أن جدول أعـمـال المؤتمر لا يتضـمن إدخال الاتفاق فيه لمناقشته فطالبت بوضعه في جدول الأعمال . قالوا لابد أن يكون هناك عدد معين من الأعضاء يطالبون

بهذا المطلب ، فجمعنا توقيعات ٢٠ عضوا من أعضاء المؤتمر فاضطروا لمناقشته ، وكنت أنا شديد الانتقاد لعرفات والقيادة الفلسطينية في ذلك الوقت وشرحت الموقف والأسس المبدئية والسياسية التي أدعو فيها لرفض الاتفاق .

وما هذه الأسس ؟

كان الاتفاق بين عرفات والحكومة الأردنية يقوم على أساس أنه يمكن أن تنشأ كحل للقضية الفلسطينية دولة واحدة تضم جزءا من فلسطين والأردن ، وهذا معناه أن قضية تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، وإقامة دولة فلسطينية تكون قد انتهت ونعود للوضع القديم الذى كانت فيه الضفة الغربية تابعة للأردن . واستمر الكلام في المؤتمر فى الصباح وكلمتي استقبلت استقبالا حافلا إلى أن رفعت الجلسة للغداء ، وفوجئت بأن جاءني الدكتور إبراهيم سعد الدين وقال لي: إن خالد محيى الدين يقول إذا صوتت الأغلبية لصالح وجهة نظرك فإنه سيستقيل من رئاسة التجمع ويقترح أن تعين بدلا منه . قلت له أنا غير مستعد إطلاقا لذلك ، وإذا

كان هذا أسلوب الضغط لكي نسحب القرار فنحن لا نستطيع الآن أن نفعل ذلك . وعندما جاء وقت التصويت على القرار ، لاحظت حركة غريبة من الأعضاء المتعاطفين مع وجهة نظري، ويبدو أن مسألة تهديد خالد بالاستقالة أخافتهم فبدأوا الاتصال بزملائهم وإعطائهم تعليمات لكي يصوتوا ضد القرار أي يصوتوا ضد رفض الاتفاق حتى لا يأخذ القرار أغلبية في المؤتمر . وتم هذا فعلا وفوجئت بورقة أخرى وقع عليها ٥٠ عضوا من أعضاء التجمع بترشيح الدكتور عبدالعظيم أنيس للمشاركة في القيادة ووقف خالد محيي الدين وقال نحن نناشد الدكتور عبدالعظيم قلت أنا معتذر ولا أريد أن أدخل في القيادة لأني غير مستعد وفعلا تمت الانتخابات دون أن أكون موجودا فيها .

لماذا لم تدخل في القيادة ؟

لأني لم أشعر بأي جدية في هذه القيادة وكنت أعتبر أن وجهة نظري التي شرحتها بخصوص الاتفاق قضية أساسية لكن الاتصالات الجانبية التي حدثت خوفا من التهديد بالاستقالة غيرت القرار ، ثم إنني لم أقل إن الأحزاب العربية

اليسارية كلها رفضت الاتفاق إلا في آخر الكلام أي بعد شرح وجهة النظر المبدئية والسياسية .

إذا لم يكن السبب لموافقة قيادة التجمع على الاتفاق هو إعطاء درس للسوفييت كما يقول الدكتور رفعت فما السبب الحقيقي إذن؟

السبب الحقيقي هو ما قيل في المؤتمر فعلا . قالوا احنا مع القيادة الفلسطينية وما توافق عليه نوافق عليه ، وأنا كان رأيي أن هذه ليست قضية خاصة بأندونيسيا فالصراع العربي الإسرائيلي يخص العرب جميعا وليس القيادة الفلسطينية فقط ويهمنا جميعا ، ونحن في مصر دخلنا في حروب مع إسرائيل وقدمنا شهداء وبالتالي فمستقبلنا مرتبط بهذا الصراع وعلى هذا الأساس فلا نستطيع أن نسلم رقبتنا للقيادة الفلسطينية إذا وافقت على شيء لابد أن نوافق .

هل كانت هناك مواقف مماثلة اتخذتها القيادة ؟

مثلا اتفاق أوسلو لم يعارضوه بينما عارضته كل أحزاب المعارضة المصرية والعربية وعارضه الشعب الفلسطيني نفسه

، بينما لم يأخذوا موقفا واضحا في هذا الموضوع . أكثر من ذلك كلما كتبت مقالا في «الأهالي» عن القضية الفلسطينية أيام حسين عبدالرازق وكان متعاطفا معي ، كان عرفات يحتج على المقال عند خالد محيي الدين وكان حساسا أكثر من اللازم . لكنهم في موضوع كوبنهاجن لم يستطيعوا أن يأخذوا موقفا مؤيدا . وجدوا أن المسألة ستكون فجة وتركوا لطفي الخولي يتصرف براحته وكان ينتظر تأييد القيادة لكنها لم تؤيده فاستقال . لكنهم في نفس الوقت لم يكن موقفهم من مسألة كوبنهاجن بالقوة الواجبة . وفي كل الاحوال فقد كنت أشعر أن قيادة التجمع منذ المؤتمر الذى ذكرناه إلى الآن أنها هي ومنظمة التحرير جبهة واحدة لا يختلفان في أي شئ .. وجاء وقت أنه من الافضل ألا أكون موجودا في التجمع فقاطعت اجتماعاته لكنني لم أكتب استقالة لأنني لم أكن عضوا فيه أصلا .

هذا معناه أنك لم تلتق مع بريماكوف ولم يتصل بك ؟

عمري ما شوفت بريماكوف ولا أعرفه خالص ، حتى عندما كان مراسلا لجريدة برافدا في مصر لم ألتق به ، وإذا

كانوا يقولون إنهم اتخذوا هذا الموقف لكي يكون رسالة للسوفييت مضمونها أنهم لا يسمعون كلامهم . الموضوع لا يمكن حسابه بهذه الطريقة ، فإذا كان هناك خطأ في الموقف الروسي كان يجب كشف هذا الخطأ ، وهل إذا اتخذوا موقفا ضد الاتفاق سيكون هذا معناه أنهم مع السوفييت ، الناصريون مثلا كانوا ضد الاتفاق فهل هذا معناه أنه مع السوفييت ، أنا رأيي أن المواقف السياسية لا ينبغي أن تؤخذ على هذا الأساس ، فالمواقف الصحيحة تؤخذ على أسس مبدئية محترمة بصرف النظر عن أنها من السوفييت أم لا .. ببساطة الاتفاق الأردني الفلسطيني كان معناه في وقتها إلغاء حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وإقامة دولته المستقلة فرفضته ..

لاحظ الناس أنك بدأت تكتب مقالا أسبوعيا في «الوفد» وبعد مدة قليلة امتنعت فجأة عن الكتابة فلماذا ؟

أنا لم أسع للكتابة في الوفد وإنما هم الذين سعوا لأكتب عندهم ، وكان ذلك في إطار تغيير شكل الصحيفة بعد

الانتخابات الأخيرة ، فقد استقروا لاستكتاب عدد من الكتاب من خارج الوفد يمثلون اليمين واليسار والوسط . وفوجئت باتصال رئيس التحرير بي وقال لي وقع عليك الاختيار كممثل لليسار ونريدك أن تكتب مقالا اسبوعيا كل يوم سبت فطلبت منه مهلة للتفكير ثم وافقت ، وكتبت المقال الأول عن ذكرياتي مع التيار اليساري في الوفد والطليعة الوفدية ، فأنا نشأت في عائلة وفدية وكان أخي إبراهيم شاعرا وكان يخطب أمام سعد زغلول ، المهم كانوا سعداء بهذا المقال باعتباره مقالا عن ذكريات جميلة ، وأرسلت المقال الثاني فنشروه في موعده ، وفي المقال الثالث فوجئت أنهم لم ينشروه . وظهر مكانه مقال عن مسلسل «أوان الورد» لصافيناز كاظم اتصلت برئيس التحرير في المكتب وفي البيت وعلى المحمول فتهرب مني لمدة ٤ أيام .

ما موضوع المقال ولماذا لم ينشر ؟

كان عن حقيقة أوضاعنا الاقتصادية ، وأنا دائما في مقالاتي أقسمها إلى موضوع رئيسي وموضوع جانبي .

الموضوع الرئيسي كان عن حقيقة أوضاعنا الاقتصادية والجزء الجانبي كان عن عودة المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية . وكنت بالطبع ضد عودة المفاوضات لأن عودتها لا تخدم سوى كلينتون الذى يريد قبل خروجه من البيت الأبيض أن يفعل شيئا يكتب له فى التاريخ بعد فضيحة مونيكا ويريد أن يحصل على جائزة نوبل . ومفهوم أيضا موقف باراك الذي يدخل انتخابات جديدة ، ويريد أن يظهر بمظهر رجل سلام . وقلت: إن هناك إجماعا من جميع القوى الوطنية والإسلامية بما فى ذلك منظمة فتح ضد عودة المفاوضات ودا عين لإضراب عام لترك هذه المفاوضات وقلت إن ما لم أفهمه هو موقف عرفات والحكام العرب الذين يساندونه وأظن أن هذا هو السبب فى عدم نشر المقال .

لكن المقال نشر بعد ذلك فلماذا تظن هذا الظن ؟

المقال نشر بعد موعده بأسبوع وبعد أن اتصل بهم عدد من الناس وسألوهم لماذا لم يظهر مقالي . ونشر المقال بعد أسبوع من موعده أفقده قيمته لأن الأحداث سارت في مسار

اخر وأصبح مثل الكلام البايت ، وانا أخمن أن السبب في عدم نشره هو الجزء الخاص بالمفاوضات لأنهم ينشرون كلاما كثيرا عن المشاكل الاقتصادية لكن يبدو أن الكلام في القضية الفلسطينية يتعاملون معه بحساسية فهناك تصريح لنعمان جمعة قال فيه نحن لا نزايد على الرئيس مبارك في موضوع فلسطين ، بعد ذلك اتصل بي رئيس التحرير وبرر عدم اتصاله السابق بكثرة مشاغله في الجريدة وقال إن عدد الكتاب كبير لهذا سوف يجعلون الناس تكتب كل أسبوعين فاعتذرت .

ننتقل من السياسة إلى الثقافة ، وهناك طبعا الأزمة التي وقعت في وزارة الثقافة بسبب الروايات التي تتضمن مشاهد جنسية وعزل علي أبو شادي من رئاسة هيئة قصور الثقافة واعتراض المثقفين .. ما رأيك ؟

نحن أصدرنا بيانا عندما وقع عزل على أبو شادى وكشيك وأبو العلا واعتبرنا أن هذا بمثابة عمل هجومي ضد تيار متقدم داخل وزارة الثقافة من أجل القضاء عليه نهائيا وأن

الوزير بهذا العمل يحاول أن يلبس عمامة شيخ الأزهر . وكان عدد كبير من المثقفين قد اتصلوا بي وقالوا: إن لديهم بيانا يتضمن هذه الأمور وطلبوا توقيعي قلت أوقع . ونحن رفضنا التعامل مع وزارة الثقافة خصوصا في موضوع المشاركة في أنشطة معرض الكتاب .

ما رأيك فيما قيل عن الروايات ؟

أنا لم أقرأها . ولكن قيل إنها تتضمن تلميحات جنسية . ومع ذلك فالأدب له قواعد وأصول تختلف عن الكتابة الأخرى . فإذا كانت هناك مثل هذه التلميحات فينبغي أن ينظر للموضوع بمنظور الإبداع الفني وليس بمنظور الإثارة الجنسية . ثانيا هناك قصص وروايات كثيرة فيها مثل هذه الأشياء مثل قصص إحسان عبدالقدوس وغيره لدرجة أن أحد الناشرين لقصص إحسان قام بتغييرات فيها وحذف المشاهد الجنسية فرفع ابنه قضية ضد الناشر لأنه ليس من حقه أن يغير فيها . وقصص نجيب محفوظ الأولى فيها تلميحات جنسية . والحقيقة أن هناك تقييمات مختلفة للروايات التي

أثارت الأزمة ، على سبيل المثال كتب إدوار الخراط مقالا عن رواية «قبل وبعد» في «أخبار الأدب» طلعها السما ، وإدوار الخراط ليس أديبا بسيطا ، في العدد الأخير من «العربي» كتب فتحي عامر أن الروايات تافهة لكنه قال: أنه غير موافق على المصادرة ، يعني هناك تقييمات مختلفة لذلك فأنا رأيي أن عملية المصادرة عملية خطرة جدا مهما كان فيه من تلميحات جنسية لأن الرواية لا يطبع منها أكثر من ٣ آلاف نسخة ولا يقرؤها أكثر من ٣٠٠ أو ٥٠٠ من ٦٥ مليونا وإذا كان هناك خطأ فلا شك عن ضرورة إصلاحه بأن تكون هناك لجان قراءة محايدة وممثلة لكل الاتجاهات الفنية، ثم لماذا كان الوزير ساكتا كل هذا الوقت على موضوع لجان القراءة ويأتي بعد ذلك ليقول: إنه كان معتمدا على علي أبو شادي لكي يكون رقيبا على الإبداع ، رأيي أن الحل ليس في إقصاء هذه القيادات التي تمثل اتجاها متقدما في الوزارة ..

هل تعتقد أن السبب الرئيسي لتصفية هذه القيادات هو موضوع الروايات فقط ؟

من الواضح أن الوزير وقع في حالة فزع عندما تقدم بعض رموز الإخوان في مجلس الشعب بطلب الإحاطة . وكان قد سبق أن هوجم في موضوعات كثيرة جعلته يشعر أن على رأسه ١٠٠ بطحة منها موضوع الآثار وموضوع احتفاله بالألفية وإنفاقه الملايين عليها ومعروف أنه كلف بها ميشيل جار وأنا مؤيد لنقد الوزير في هذا الموضوع .

ما رأيك في أن تقيم وزارة الثقافة مؤتمرا للمثقفين دعى إليه الأستاذ محمود أمين العالم كما يقول الوزير ، وبالمناسبة ما رأيك أيضا في مشاركة الأستاذ العالم في أنشطة الوزارة؟

الأستاذ العالم له وجهة نظر وحدها تماما في هذه المشاركة ، حتى لو لم نكن نتفق معه حول موضوع تعاونه مع وزارة الثقافة أظن أنه يعبر عن هذا الموضوع بقوله: إنه يتعامل مع الدولة المصرية وأنا لا أرى فرقا بين الدولة المصرية ونظام الحكم وأنا طبعا أحترم رأيه لكن لي موقفا مختلفا في هذا الموضوع فهو يرأس لجنة الفلسفة في المجلس الأعلى

للثقافة وانا لم أقبل نهائيا أن أدخل لجنة الثقافة العلمية في المجلس واعتذرت .

وماذا عن مؤتمر المثقفين ؟

مؤتمر المثقفين خطر من الأساس أن تتبناه وزارة الثقافة . أنا لا أعترض على مؤتمر للمثقفين ولكن اعتراضي على تبنى وزارة الثقافة له . ووزارة الثقافة هيئة حكومية وعلى هذا الأساس فالمؤتمر معرض لأن يكون ركيزة لدعم النظام . لأن المثقف ما هو؟ المثقف ليس المتخصص في علم من العلوم مثل الكيمياء أو التاريخ. المثقف هو الإنسان المهموم بشئون البلد ولديه الثقافة العامة وليست كل الناس التي لديها معرفة أو تخصص مهمومة بشئون البلد : وهناك كثيرون لديهم معارف واسعة ولكنهم يسيرون بجوار الحائط لهذا فهؤلاء غير مثقفين . والمثقف لابد أن يكون مستقلا عن الدولة ونظام الحكم لكي يكون مثقفا بالمعنى الحقيقي .

إذن ما تصورك للمؤتمر المثقفين البديل ؟

مؤتمر المثقفين يجب أن تنظمه هيئة شعبية مستقلة عن وزارة الثقافة وممثلة لكل الاتجاهات الفكرية والثقافية المختلفة يعني لابد أن يكون فيه الناصريون واليساريون والليبراليون والاتجاهات الدينية المستنيرة والقوى الوطنية على أن يكون مؤتمرا للمثقفين المصريين والعرب وتوجد فيه كل القوى الوطنية التي ترى أهمية التصدي لإسرائيل أما فكرة أن يحتضن وزير الثقافة هذا المؤتمر فسوف يتحول إلى تأييد النظام وهذا غير المطلوب طبعا ، إذن لابد من وجود لجنة شعبية مستقلة للقيام بهذا المؤتمر ثم يأتي بعد ذلك مؤتمر للثقافة العربية يشارك فيه المثقفون العرب لأن الثقافة بمعناها العميق مفروض أن تكون أساسا لكل العمل الوطني وأنا رأيي أن النقطة الأساسية في مؤتمر مستقل للمثقفين هي التأكيد على هويتنا القومية كعرب ومناضلين ضد الإمبريالية وضد إسرائيل والصهيونية وسوف يكون لهذا المؤتمر مهمة أساسية وهي تشجيع قوى أخرى حينما يرون تحرك المثقفين فيتحركون لأن من أكبر المشكلات التي نعيش فيها في

إصرار النظام على أن يحكم بالأحكام العرفية منذ عام ٨١ حتى الآن وليس صحيحا أن قانون الطوارئ لا يطبق إلا على تجار المخدرات والدليل ما حدث لطلاب الأزهر وإصرار النظام على الحكم بالأحكام العرفية يأتي من شعوره أنه لا يستطيع أن يحكم إلا بالبطش ولهذا فهناك قوى كثيرة مترددة وعندما يتحرك المثقفون من خلال مؤتمرهم سوف يتحركون .

لكن هناك أزمة في المثقفين أنفسهم ؟

الأزمة سببها افتقاد الحرية . فالمثقفون غير قادرين على التجمع في ظل الأوضاع الحالية . ولعل فكرة الدعوة لمؤتمر المثقفين المستقل أن تكون بداية للخروج من هذا المأزق . هناك مشكلة أخرى وهي أنه ليس كل المثقفين مستعدين للدخول في مخاطر العمل الوطني .

ما قصة رئاستك لدار الكاتب العربي التي أصبح اسمها الآن الهيئة المصرية للكتاب ؟

أنا كنت رئيسا لدار الكاتب من نوفمبر ١٩٦٧ ولمدة عام وبدأ هذا الموضوع عندما تلقيت مكالمة من وزير الثقافة ثروت

عكاشة . وكنت ألقى محاضرة على طلابي في الجامعة ودخل على فراش أثناء المحاضرة وقال لي وزير الثقافة على التليفون قلت له سأكلمه بعد انتهاء المحاضرة وكلمته . فقال لي أريدك أن تأتي إلى الوزارة اليوم الساعة الثانية لحديث في موضوع مهم وعندما تأتي ستعرفه . وذهبت في الموعد فقال أنا كنت عند الرئيس عبدالناصر وكنا نتكلم في تعيينات في وزارة الثقافة . وكان يرأس الدار في هذا الوقت محمود أمين العالم، وكان على الراعي يرأس مؤسسة المسرح فحدث خلاف بينه وبين الوزير وخرج على الراعي من مؤسسة المسرح ونقلوا العالم من دار الكاتب العربي إليها . ويبدو أنهم سألوا محمود أمين العالم : من الذي يتولى بعدك فاقترح اسمي . الوزير قال لي إنه كان يتكلم مع عبدالناصر حول التعيينات فقال لهم خذوا فلانا وأنا تقديري أن اسمي عرض على الرئيس فلم يعترض . قلت للوزير أنا غير متحمس لترك عملي في الجامعة فقال هذه هي توجيهات الرئيس . قلت له إذا كان الموضوع كذلك فلأذهب إلى رئاسة الدار معارا من الجامعة فوافق.

كانت هناك مشاكل مالية كبيرة فذهبت إلى نزيه ضيف وزير الخزانة وحصلت منه على قرض بحوالي ٦٠ ألف جنيه لحلها .

هل كان هناك تدخل من النظام أو من عبدالناصر لنشر كتب بعينها أو رفض كتب أخرى ؟

لا .. لا .. هذا لم يحدث إطلاقا ..

هل منع كتاب من النشر ؟

أنا لم أسمع أن كتابا منع من النشر ، لكن ما سمعناه أيامها أن رواية نجيب محفوظ «أولاد حارتنا» كانت تنشر في الأهرام فتدخل الغزالي لمنعها لأن فيها إشارات للأنبياء والله وقال عبدالناصر تستمر في نشرها مسلسلة في الأهرام لكن لا داعي لإصدارها في كتاب الآن .

هل كان مسموحا بإصدار كتب تنتقد النظام .

الفترة التي جاءت بعد ١٩٦٧ كانت من أكثر الفترات في حرية الكتاب بدليل أن رواية ثروت أباظة «شئ من الخوف» وكانت تنتقد النظام بشدة نشرت ، وبدليل روايات أو

مسرحيات عبدالرحمن الشرقاوي وكانت كلها تلقيحا على النظام كانت تنشر وكان الشرقاوي معاديا للنظام بسبب موضوع أخيه عبدالمنعم .

إذن ما الذي بقي من فكر عبدالناصر ؟

بقيت أشياء كثيرة جدا سيظل بسببها عبدالناصر محلا للهجوم من القوى الرجعية في العالم العربي والتي لا تهتم بقضية الصراع العربي الإسرائيلي فعبدالناصر هو العدو الرئيسي لهذه القوى في هذا الموضوع بقي عبدالناصر الذي أمم القناة وتصدى للعدوان الثلاثي وعمل مؤتمر باندونج وآمن بالوحدة العربية ومن ضمن الأشياء التي لابد أن تذكر لعبدالناصر اهتمامه بشكل واضح برعاية الطبقات الشعبية ولاشك في أن الشعب المصري تحسنت أحواله الاجتماعية في عهد عبدالناصر وعما كان قبله وأن أحوال الشعب المصري ساءت كثيرا بعد وفاة عبدالناصر ويذكر لعبدالناصر أنه كان زعيما وطنيا بمعنى الكلمة ويذكر له الإصلاح الزراعي وتمصير البنوك والشركات والتأميمات التي تمت وأن

مصر لم ترفع رأسها في يوم من الأيام مثلما رفعتها في عهد عبدالناصر ، كل هذا حقيقي وكل هذا – من ناحية ثانية – لا يمكن أن ينسينا أن العودة الوحيدة للنظام في قضية الديمقراطية وقضية الديمقراطية تمت معالجتها بشكل سلطوي لم تكن هناك ضرورة ماسة لها ولم تكن هناك ضرورة ماسة للسجون والمعتقلات وإعدام خميس والبقري كما أن عبدالناصر أخطأ في حساباته في موضوع الوحدة مع سوريا عندما اعتمد على عبدالحكيم عامر في سوريا وهذا أدى إلى مشاكل كثيرة بدليل أن قادة الإنقلاب على الوحدة كانوا من الضباط السوريين في مكتب المشير .

بالنسبة لإعدام خميس والبقري عبدالناصر كان رافضا هذا الموضوع ، ولكن بالنسبة للوحدة ألا ترى أن الأحزاب الشيوعية أخطأت في تقديرها للوحدة في ذلك الوقت ؟

أنا رأيي أن الأحزاب الشيوعية أخطأت أيضا في مسألة الوحدة عندما تصورت أن تفاهم عبدالناصر المؤقت مع الأمريكان أيام الأزمة بينه وبين خورشوف هو تفاهم أبدي

وهذا أثر على تقديرات الشيوعيين لأن الأحداث أثبتت أن تفاهم عبدالناصر مع الأمريكان كان مؤقتا واختلف معهم بعد ذلك .

قلت إن القوى الرجعية ستظل دائما في صراع ضد عبدالناصر؟

هذا صحيح بدليل أنني وصلتني أمس رسالة من السعودية مجهولة التوقيع ومكتوبة على الآلة الكاتبة كلها هجوم وسباب في عبدالناصر والتضليل وضعوها في ظرف بعبي كفتها جواب غرامي رغم أنهم لم يخطئوا العنوان . يقول صاحب الرسالة : يا أخي أنا مجنون منك ، أنت لم تضطهد في حياتك كما اضطهدت في عصر عبدالناصر ، ومع ذلك لا يوجد من يدافع هذا الدفاع المجيد عنه مثلك ، قلت لنفسي هذا صحيح والسبب أنني لا أحكم على المرحلة الناصرية بدلالة ما حدث لي وحدي ولكن بدلالة ما حدث للشعب كله ورأيي انه إذا كان الإنسان سياسيا مسئولا لابد أن يكون

هذا هو موقفه لا أن يقول فقط انه كان يسير حافيا فى معتقلات عبدالناصر وأن ..وأن .. وإن كان كل هذا صحيحا ولابد أن يعرف .

ننتقل إلى موضوع التعليم خصوصا وأنك أستاذ جامعى ولك رأى فيما يحدث فى التعليم الآن ؟

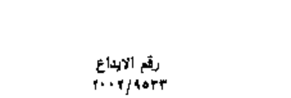
الفكرة الاساسية التى لابد أن تقال الآن هى أن مصر غير مستعدة للإنفاق على التعليم بالطريقة التى تجعل مستواه جيدا .. هم يقولون إن ميزانية التعليم زادت من ٤ مليارات إلى ١١ مليار جنيه وينسون السنة التى كان ينفق فيها على التعليم ٤ مليارات وخلال هذه الفترة كم مرة زاد فيها عدد السكان وكم مرة انخفضت فيها قيمة العملة بسبب التضخم ، المعيار الحقيقى أن ترى ما ينفق على الطالب بالأسعار الثابتة .. الوزير قال ما ينفق على الطالب ٧٥ جنيها فى العام بينما يصل الإنفاق على الطالب ٢٧٠٠ جنيه فى الخارج وفى إسرائيل . المشكلة إذن هى مشكلة تمويل . وعندما حضر عاطف عبيد اللجنة التحضيرية لمؤتمر التعليم الثانوى قال هذا

بشكل واضح وقال نحن بحاجة إلي بناء ١٢٧ ألف مدرسة خلال السنوات العشر المقبلة وما بناه حسين كامل بهاء الدين لا يزيد على ألف مدرسة . والتفكير القائم عندهم لحل مشكلة التمويل هو عمل مدارس متميزة بمصروفات زائدة لجمع أموال من أولياء الأمور لبناء مدارس جديدة . وفي المؤتمر وقف أستاذ من جامعة حلوان وقال هذه الطريقة ستؤدي إلى شرخ فى المجتمع المصري أنا رديت وقلت الشرخ حدث فعلا.. لذلك أنا رأيي أنه رغم الجهود التي بذلها بهاء الدين لم يكن من الممكن أن ينجح فى حل مشاكل التعليم .

لماذا ؟

لأنه بسبب ظروف الانفتاح وجدت المدارس الخاصة التى لم تكن موجودة فى مصر من قبل مثل ما هي موجودة الآن ووجدت المدارس الأجنبية والدروس الخصوصية التى انتشرت بكثرة وهذه الأمور كلها أدت إلى فشل مشروعات حسين كامل بهاء الدين بينما نجح الانفتاح .

الفهـــرس



رقم الايداع

٢٠٠٢/٩٥٢٣

977 - 07 - 0845 - 3

روايات الهلال
تقدم

اسرار حميمة

تأليف :
ثوريا إمات

يصدر ١٥ يونيو ٢٠٠٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

كتاب الهلال

يقدم

الأيك
فى المباهج والأحزان

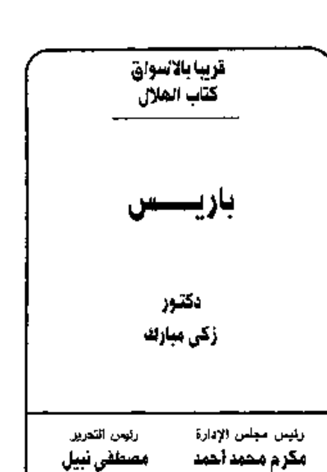
بقلم

عزت القمحاوى

يصدر ٥ يوليو ٢٠٠٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل


قريبا بالأسواق
كتاب الهلال
باريـــس
دكتور
زكي مبارك
رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير
مصطفى نبيل

هذا الكتاب

ذكريات من حياتى كتاب جديد للدكتور عبدالعظيم أنيس الذى ينتمى إلى رفقة عظيمة من مثقفى مصر العظام.

وهو أحد كبار علماء الرياضيات المعروفين عالميا فى مجال الرياضة البحتة وإسهاماته متعددة فى تعديل المناهج الدراسية وتطويرها بالإضافة إلى إسهاماته الثرية والمثيرة والجريئة فى مجال الفكر والثقافة والسياسة ، فهو مفكر إنسانى محب لبلده ووطنه صاحب مبدأ لا يتغير مدافعا عن حق يعطاء الناس فى الحياة الكريمة واشتهر بمعاركه الأدبية والسياسية وكان من رواد المعركة ضد القديم .. معركة من أجل أدب جديد تحت شعار الأدب فى سبيل الحياة.

ومعاركه السياسية من أجل الحق والحرية ومن أجلهما سجن لمدة سنوات وتعرض للفصل والتشريد عدة مرات وكل ذلك لم يؤد إلى تخليه عن مواقفه لحظة واحدة.

وهذا الكتاب يكشف العمق الإنسانى والمعرفى لفهم د. عبدالعظيم أنيس المفكر والأديب والسياسى وعالم الرياضيات فهو نسيج من العلم والمعرفة المتكاملة سيجد فيه القارئ فوائد جمة لاستخلاص دروس من تلك المحطات المتنوعة فى حياة الدكتور عبدالعظيم أنيس حيث مر بظروف قاسية وصعبة واشتغل بأعمال متباعدة سنوات مختلفة من حياته فهو فى الأصل كان أستاذ رياضيات فى جامعات مصر الثلاث ،القاهرة - عين شمس - الاسكندرية، وقام بتدريسها أيضا فى إحدى كليات جامعة لندن ورغم ذلك اشتغل بالصحافة وتخصص فى الشئون العربية.

وهو مشوار طويل من الخبرة الثقافية والعالمية والمشاركة السياسية الثرية يحكيه بصدق وهو غير نادم على أى شئ خلال الثمانين عاما.


روايات مصرية للجيب


أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات



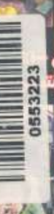



روايات مصرية للجيب


معشوقة شباب العالم العربي
من مشرقه إلى مغربه


تأليف مصري
لا ترجمة لا اقت




Bibliotheca Alexandrina
0553223

